الباب الثانى

فى

التفريق بالقضاء

بينا فيما سبق أن الله سبحانه وتعالى جعل حق الطلاق للرجل وحده دون غيره، إلا إذا كان وكيلا عنه أو فوضه فيه، وليس معنى هذا أن الله أهمل جانب المرأة، ولم يجعل لها حقًا تستطيع أن تسترد به كرامتها إذا أهينت وحقوقها إذا هضمت، وإنما جعل الإسلام للمرأة حقها المشروع فى المطالبة بالتفريق بينها وبين زوجها إذا كانت هناك ضرورة تقتضى ذلك، وأوجب على القاضى أن يرفع عنها الظلم الواقع عليها، ويخلصها من زوجية فقدت ثمرتها وضاعت الآمال المرتقبة منها، بسبب يترتب عليه الإضرار بها ويمنع الزوج عن مفارقته لها بالمعروف.

وإذا كانت الشريعة الإسلامية لم تهمل جانب المرأة فى هذا الأمر، فلابد لنا من الكلام على الحالات التى يجوز فيها للزوجة أن تطالب بالتفرقة بينها وبين زوجها أمام القضاء، وذلك ينحصر فى خمس حالات، نص القانون رقم ٢٥ لسنة ١٩٢٠ على اثنين منها وهما التفريق لعدم الإنفاق على الزوجة، والتفريق للعيب، ونص القانون رقم ٢٥ لسنة ١٩٢٩ على ثلاث حالات:

الأولى: التفريق للضرر وسوء العشرة.

الثانية: التفريق لغيبة الزوج بدون عذر.

الثالثة: التفريق لحبس الزوج.

وسأحاول الإيجاز فى بيان هذه الحالات ما استطعت إلى ذلك سبيلا.

الفصل الأول

فى

التفريق لعدم الإنفاق

الزوج الذى وجبت عليه نفقة زوجته، قد يدفعها لها وتبرأ ذمته بأدائها، وقد لايدفعها ولكنها تبرئه من دفعها إليها فتسقط المطالبة بها، وقد يمتنع الزوج من دفع نفقتها إليها، إما لأنه معسر لايجد مايدفعه لها، وإما لأنه متعنت يريد مضايقتها والإضرار بها وهو موسر، وله مال ظاهر يمكن الأخذ منه، أو ليس له مال ظاهر.

فإن كان موسرًا وله مال فللزوجة أن تأخذ كفايتها من هذا المال وليس لها الحق فى المطالبة بالتفريق بينها وبين زوجها؛ لأنها فى إمكانها أن تأخذ حقها من ماله الظاهر.

وإن لم يكن مال الزوج ظاهرًا، بل كان مجهولا أو مخبأ لايعلم به أحد من الناس، فلا يكون لها الحق فى المطالبة بالتفريق ـ عل رأى الحنفية ـ وإنما يكون لها الحق فى المطالبة بحبس الزوج حتى يجبر على دفع ماوجب لها ويجوز لها أن تطالب بالتفريق بينها وبين زوجها بناء على رأى جمهور الفقهاء.

ويستدل الحنفية على مذهبهم: بأن التفريق بين الزوجين يترتب عليه تفويت حق الزوج وإبطاله، وعدم التفريق يترتب عليه تأخير حق الزوجة.

ولاشك أن التأخير أخف من الإبطال، ومن الممكن أن تستدين الزوجة وتنفق على نفسها فيرتفع الضرر عنها بذلك.

ويستدل الجمهور على مذهبهم: بقوله تعالى: ﴿فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾[1]. فهذه الآية الكريمة تفيد الأمر من الله سبحانه وتعالى للأزواج أن يمسكوا زوجاتهم بالمعروف، أو يفارقونهن بالإحسان، ولاشك أن من يمتنع عن الإنفاق على زوجته لا يكون ممسكا لها بالمعروف، فهو مخالف لأمر الله وظالم لزوجته، فيجب عليه التسريح بالإحسان، حتى يكون ممتثلا لأمر الله، فإذا لم يطلق بإرادته طلق عليه القاضى جبرا عنه.

وإن كان معسرا ولا يجد ما ينفقه على زوجته، فإما أن ترضى بالعيش معه وإما ألا ترضى، فإن رضيت فلا تطليق ولا فسخ بالإتفاق بين الفقهاء، وإن لم ترضى فالجمهور يبيح لها أن تطالب بالتفريق بينها وبين زوجها، لرفع الضرر الواقع عليها بسبب الإعسار بالنفقة، وعلى القاضى - إذا ثبت له الإعسار فعلا - أن يطلق عليه إذا امتنع عن تطليقها.

والحنفية ومن وافقهم لايجوزون التفريق للإعسار؛ لنفس العلة السابقة. وقد كان العمل بمذهب الحنفية حتى صدر القانون رقم ٢٥ لسنة ١٩٢٠ فعدل عن العمل بمذهب الحنفية وعمل بمذهب جمهور الفقهاء، وقد نصت المادة الرابعة والخامسة على ذلك وخلاصتهما هى:

١ - إن كان الزوج الممتنع عن الإنفاق على زوجته - له مال ظاهر، نفذ الحكم عليه بالنفقة فى هذا المال، وليس للزوجة الحق فى المطالبة بالتفريق، والكفيل الذى كفل الزوج، يقوم مقام الزوج فى ذلك، إن كان له مال ظاهر يمكن تنفيذ حكم النفقة فيه.

٢ - وإن لم يكن له مال ظاهر حاضر، وادعى الإعسار، وصدقته الزوجة، أو أقام البينة على إعساره أمهله القاضى مدة لاتزيد عن شهر، فإذا لم ينفق على زوجته فيها طلق عليه القاضى.

وإذا لم يثبت إعساره، أو لم يبين حاله، أو قال أنا موسر ولكنه أصر على عدم الإنفاق وأصرت زوجته على الطلاق منه، طلق عليه القاضى فى الحال لأنه يقصد الإضرار بزوجته فلا يمهل.

(١) الآية ٢٢٩ من سورة البقرة.

٣ ـ وإن لم يكن له مال ظاهر وهو غائب غيبة قريبة (وهى التى يسهل وصول الإعلان إليه فى تسعة أيام فأقل) حدد القاضى له مدة لإرسال النفقة لزوجته، أو لحضوره لينفق عليها، فإذا مضت المدة بدون أن يرسل النفقة أو يحضر بنفسه طلق عليه القاضى بعد التحقق من وصول الإعلان إليه، مادامت زوجته تصر على الطلاق.

وإن كان الزوج غائبا غيبة بعيدة (وهى التى لا يصل الإعلان إليه إلا فى مدة تتجاوز تسعة أيام) أو لا يعرف له محل إقامة، أو كان مفقودًا لا يعلم أحى هو أم ميت طلق عليه القاضى فى الحال إذا أثبتت الزوجة صحة دعواها.

وتسرى أحكام هذا القانون على المسجون الذى يعسر بالنفقة، ويعامل كالغائب غيبة قريبة. إن كان له مال نفذ الحكم عليه بالنفقة فى ماله، وإن لم يكن له مال ظاهر، فلا يطلق عليه القاضى ـ إذا طلبت زوجة المحبوس الطلاق ـ إلا بعد أن يضرب له أجلا، ويعلنه به ويطلب منه أن يرسل النفقة لزوجته فى خلال المدة المضروبة، فإذا مضت بدون أن تصل النفقه إليها طلق عليه القاضى، والمسجون مثل الغائب غيبة قريبة فى هذه الأحكام.

نوع الطلاق هنا:

الطلاق الذى يوقعه القاضى على المرأة بسبب إعسار الزوج أو بسبب امتناعه عن الإنفاق عليها يكون طلاقا رجعيًا، ن كان بعد الدخول، ومادام الطلاق رجعيا فللزوج أن يراجع زوجته فى أثناء العدة، ولكن المراجعة هنا لا تصح إلا إذ ثبت يسار الزوج واستعد للإنفاق على زوجته فى أثناء العدة، فإذا لم يثبت يساره، ولم يبد استعداده للإنفاق عليها ـ عند الامتناع ـ لاتصح الرجعة.

وقد جرى العمل فى المحاكم المصرية على أنه لا يحكم بصحة الرجعة إلا إذا دفع الزوج نفقة زوجته فعلا، فإذا لم يدفع فلا يحكم بصحة الرجعة، ولا يكتفى بقول الزوج إنه مستعد للإنفاق على زوجته.

الفصل الثانى
فى
التفريق بالعيب

اختلف الفقهاء فى التفريق بين الزوجين بسبب العيب ويتلخص هذا الخلاف فى المذاهب الآتية:

١ ـ ذهب أهل الظاهر إلى أنه لايجوز التفريق بين الزوجين بأى عيب كان سواء أكان هذا العيب بالزوج أم بالزوجة، وسواء أكان هذا العيب قبل الزواج أو بعد الزواج، والذى جعلهم يمنعون التفريق بالعيب مطلقا، أنه لم يصح فى نظرهم دليل يدل على جواز التفريق بين الزوجين بالعيب.

٢ ـ وذهب جمهور الفقهاء إلى جواز التفريق بين الزوجين بسبب عيوب خاصة، وقد انقسم الجمهور فى هذا الموضوع إلى فريقين:

الأول: يرى أنه لا يجوز التفريق بين الزوجين إلا بعيوب خاصة توجد فى الرجل، وهذا رأى فقهاء الحنفية وقد اختلفوا فيما بينهم فى عدد هذه العيوب.

فذهب الرمام أبو حنيفة ووافقه أبو يوسف، إلى أن العيوب التى توجد فى الرجل ويحق لزوجته أن تطالب بالتفريق بينها وبينه بسبب وجود أحد هذه العيوب هى الجب[1] والعنة الخصاء؛ لأنها تنافى مقصود الزواج، ولايمكن أن تزول، فإذا امتنع الزوج عن طلاق زوجته طلق عليه القاضى، لرفع الضرر عن المرأة.

وزادها محمد إلى ستة: الجب والعنة والخصاء والجنون والجذام والبرص، لأن كل واحد من هذه العيوب الستة يكون سببا لنفرة الزوجة من زوجها؛ وتتضرر

(١) الجب: قطع العضو التناسلى، والعنة: عدم المقدرة على الإتصال الجنسى.

بالبقاء معه وفيه أحد هذه العيوب، والشريعة الإسلامية لاترضى بالإضرار، وقد قال الرسول ﷺ «لاضرر ولا ضرار»[1].

وقد قصر الحنفية هذا الحق على الزوجة وحدها دون الزوج، فهى التى يحق لها أن تطالب بالتفريق إذا وجدت فى زوجها أحد هذه العيوب المذكورة وليس للزوج أن يطالب بالتفريق إذا وجد فى زوجته أحد العيوب التى توجد فى النساء؛ لأنه فى إمكانه أن يطلقها، والطلاق أستر لها وأرحم بها بدلا من التشهير بها إذا رفع الأمر إلى القضاء.

الثانى: يرى أنه يجوز التفريق بين الزوجين بسبب العيوب التى توجد فى الرجل، والعيوب التى توجد فى المرأة، وهذا الحق لكل من الزوجين إذا وجد بالآخر أحد هذه العيوب، وهذا مذهب الأئمة الثلاثة ومن وافقهم، وقد اختلفوا فى عدد هذه العيوب، بعضهم جعلها خمسا وبعضهم جعلها أكثر من ذلك، وعيوب المرأة الخاصة هى: الرتق والقرن[2].

٣ ـ وذهب البعض إلى جواز التفريق بين الزوجين بأى عيب كان، فكان عيب ينفجر أحد الزوجين من الآخر، ولايحصل معه المقصود من الزواج يجوز التفريق بين الزوجين بسببه، وهذا قول شريح وابن شهاب الزهرى وأبى ثور، وهو الذى اختاره ابن القيم ودافع عنه.

وهذا الرأى فى نظرى هو الرأى الراجح الذى يتمشى مع قواعد الشريعة فما دام هناك عيب بأحد الزوجين ينفر الآخر فلا تستقيم الحياة الزوجية، ولاتؤدى ثمرتها المنشودة من المودة والرحمة، فالخير فى تسهيل الافتراق، مادام الرضى بالبقاء غير قائم.

ومنذ صدور القانون رقم ٢٥ لسنة ١٩٢٠ أصبح العمل الآن بغير مذهب الحنفية، وقد نصت المادة رقم ٩ من القانون المذكور على مايأتى:

«للزوجة أن تطلب التفريق بينها وبين زوجها، إذا وجدت به عيبا مستحكما لايمكن البرء منه، أو يمكن بعد زمن طويل، ولايمكنها المقام معه إلا بضرر كالجنون والجذام والبرص، سواء أكان ذلك العيب بالزوج قبل العقد ولم تعلم به،

(١) جامع العلوم والحكم فى شرح خمسين حديثًا من جوامع الكلم ص ٢٦٥.

(٢) الرتق «بفتح التاء» انسداد والتحام موضع اتصال الرجل بالمرأة اتصالا جنسيًا، والقرن «بفتح القاف والراء» غدة تمنع الإتصال الجنسى

أم حدث بعد العقد ولم ترض به، فإن تزوجته عالمة بالعيب أو حدث العيب بعد العقد ورضيت به صراحة أو دلالة بعد علمها فلا يجوز التفريق» ونصت المادة العاشرة على أن «الفرقة بالعيب طلاق بائن»؛ والمادة الحادية عشر على أنه «يستعا بأهل الخبرة فى العيوب التى يطلب فسخ الزواج من أجلها».

والقانون مأخوذ من مذهب الإمام مالك الذى يقول بأن الفرقة بالعيب تعتبر طلاقًا بائنا، وقد قال بذلك أيضا الحنفية، وخالف الشافعى وأحمد فى ذلك فقالا: إن الفرقة تعتبر فسخا لا طلاقا.

والقانون توسع فى هذا الموضوع ولم يحصر العيوب فى عدد معين؛ وهو يتفق مع أصحاب المذهب الثالث وهو اتجاه سليم وقد اشترط القانون لهذه الفرقة شروطا تتضح من قراءة المواد سالفة الذكر وتتلخص فيما يأتى:

الشرط الأول: يشترط أن يكون العيب مستحكما لايمكن البرء منه أو يمكن البرء منه بعد زمن طويل وتتضرر بالمقام معه، ومعنى هذا أن العيب إذا لم يكن مستحكما ويمكن البرء منه فى زمن وجيز لايجوز التفريق، ومثل العيب الذى تتضرر بالمقام معه كل عيب يمثال العيوب المذكورة فى الضرر.

الشرط الثانى: ألا تعلم المرأة بالعيب عند العقد. فإن علمت المرأة به عند العقد ورضيت به فلا يجوز لها المطالبة بالتفريق بسبب هذا العيب، وكذلك إذا حدث العيب بالزوج بعد العقد ولكنها رضيت به صراحة أو دلالة بعد علمها به.

وقد قصر القانون حق المطالبة بالتفريق للعيب على الزوجة وحدها دون الزوج، والأولى أن يعمل بمذهب الجمهور فى ذلك، ويكون الحق للرجل كما هو للمرأة، وذلك ليتمكن من إنهاء الزواج بدون أن يتحمل عبئًا ماليا، لأن الفرقة جاءت من قبل الزوجة.

وينبغى أن تحدد المدة التى يرجى فيها الشفاء من المرض الذى يمكن شفاؤه بدلا من ترك تقديرها إلى الأطباء الأخصائيين وذلك يؤدى إلى الخلاف، والأولى أن تحدد بسنة كما هو مذكور فى كتب الفقه بالنسبة للعنين.

الفصل الثالث
فى
التفريق بالضرر

كان يعمل بمذهب الحنفية قبل صدور القانون رقم ٢٥ لسنة ١٩٢٩، وهم لا يجوزون التفريق بين الزوجين بسبب الإضرار بالزوجة وبسبب سوء المعاشرة لها، ولكنه عدل عن مذهبهم منذ صدر هذا القانون وأصبح العمل به، وقد نشر فى الجريدة الرسمية بتاريخ ٢٥ من مارس سنة ١٩٢٩.

والمراد بالضرر الذى يبيح للزوجة أن تطالب بالتفريق بينها وبين زوجها بسببه: هو الإيذاء لها بالقول أو بالفعل، وذلك كأن يضربها ضربا مبرحا. أو يشتمها شتما مقذعا، أو يجبرها على فعل محرم كمجالسة الغرباء، ولعب القمار وشرب الخمر، أو يهجرها فى الفراش وما أشبه ذلك من كل ما يضر الزوجة ويؤذيها.

وهذه هى مواد القانون المشار إليه فى هذا الموضوع:

مادة ٦ ـ إذا ادعت الزوجة إضرار الزوج بها بما لا يستطاع معه دوام العشرة بين أمثالهما، يجوز لها أن تطلب من القاضى التفريق، وحينئذ يطلقها القاضى طلقة بائنة، إذا ثبت الضرر وعجز عن الإصلاح بينهما، فإذا رفض الطلب ثم تكررت الشكوى ولم يثبت الضرر، بعث القاضى حكمين وقضى على الوجه المبين فى المواد ٧، ٨، ٩، ١٠، ١١.

مادة ٧ ـ يشترط فى الحكمين أن يكونا رجلين عدلين من أهل الزوجين إن أمكن: وإلا فمن غيرهم ممن لهم خبرة بحالهما وقدرة على الإصلاح بينهما.

مادة ٨ ـ على الحكمين أن يتعرفا أسباب الشقاق بين الزوجين، ويبذلا جهدهما فى الإصلاح، فإن أمكن على طريقة معينة قرراها.

مادة ٩ ـ إذا عجز الحكمان عن الإصلاح، وكانت الإساءة من الزوج أو منهما، أو جهل الحال قررا التفريق بطلقة بائنة.

مادة ١٠ ـ إذا اختلف الحكمان أمرهما القاضى بمعاودة البحث، فإن استمر الخلاف بينهما حكم غيرهما.

مادة ١٣١١ ـ على الحكمين أن يرفعا إلى القاضى ما يقررانه، وعلى القاضى أن يحكم بمقتضاه. ونحن إذا نظرنا فى هذه المواد نجد أن القانون أباح للزوجة أن تطالب بالتفريق بينها وبين زوجها، إذا كانت الإساءة من الزوج أو منهما معا أو جهل مصدرها كما بينت ذلك المادة التاسعة وقد أهمل القانون حق الرجل فى هذا الأمر، لو ثبت أن الإساءة من جانب الزوجة وحدها، وكان ينبغى أن يكون للزوج هذا الحق كما هو مقرر فى مذهب الإمام مالك الذى أخذ منه هذا القانون، والأولى أن يترتب على ثبوت إساءة الزوجة لزوجها، أن يكون له الحق فى المطالبة بتعويض تدفعه الزوجة له ويخالعها عليه ـ إن أراد ـ ولو كان أكثر من المهر الذى دفعه لها، مادامت هى التى تشاكس.

وليس هناك ما يدعو إلى تأخير إرسال الحكمين حتى ترفض الدعوى فى المرة الأولى ثم تتكرر الدعوى مرة ثانية وتعجز المرأة عن إثبات الضرر الواقع عليها. كما هو واضح فى المادة السادسة من هذا القانون وإنما الواجب أن يكون الحكمان من أول مرة وبمجرد رفع القضية وقبل الفصل فيها حتى تتكشف الأمور للقاضى الذى يفصل فى النزاع بواسطة الحكمين، وقد قال الله تعالى: ﴿**وَاللاَّتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلاَ تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا(٣٤) وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلاَحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا (٣٥)**﴾[1].

(١) الآيتان ٣٤، ٣٥ من سورة النساء.

ووجه الاستدلال من الآيتين: أن الله سبحانه وتعالي نهي عن البغي علي الزوجات إذا رجعن عن النشوز، واستقامت أحوالهن، وحذر الأزواج من عقابه لهم إن ظلموا الزوجات المستقيمات، ثم بين الله للناس طريق الخير الواضح الذي يجب عليهم اتباعه بعد تحذيره للأزواج حتي يسد عليهم منافذ الشر فقال: ﴿**وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا**﴾ فأمر بإرسال الحكمين عند وجود الشقاق بين الزوجين، وهذا نص مطلق غير مقيد بقيد فالأولى أن يعمل به ويكون إرسال الحكمين من أول الأمر، لا بعد رفض الدعوى الأولى وإقامة الثانية وعجز الزوجة عن إثبات الضرر الواقع عليها.

نوع الطلاق :

الطلاق الذى يوقعه القاضى بناء على الضرر الواقع على الزوجة، الذى ثبت بالبينة التى أقامتها الزوجة، أو ثبت بناء على تقرير الحكمين الذى رفعاه إلى القاضى، وطلبا منه التفريق بين الزوجين لعدم إمكان الإصلاح بينهما يكون طلاقا بائنا كما بينت ذلك المادة السادسة من القانون المذكور؛ لأن الضرر لا يزول عن الزوجة إلا إذا كان الطلاق بائنا، أما إذا كان الطلاق رجعيا فإنه لا يزول نهائيا؛ لأن للزوج أن يراجع زوجته فى الطلاق الرجعى ولو كرهت ذلك، وليس له مراجعتها فى الطلاق البائن.

الفصل الرابع

فى

التفريق للغيبة والحبس

إذا غاب الزوج عن زوجته مدة تضررت الزوجة فيها، لبعده عنها، وخشيت على نفسها الفتنة فهل يجوز لها طلب التفريق لهذا السبب أو لا يجوز؟

ذهب بعض الفقهاء إلى عدم جواز التفريق بين الزوجين بسبب غياب الزوج عن زوجته، وإن طالت مدة الغياب وهذا مذهب الحنفية والشافعية.

وذهب البعض الآخر إلى جواز التفريق للغيبة، إذا طالت وتضررت الزوجة بها، وهذا مذهب المالكية والحنابلة، وقد اختلف المالكية والحنابلة فى نوع الغيبة:

أما المالكية فقد جوزوا التفريق للغيبة مطلقا، أى سواء كات بعذر أو بغير عذر وسواء أكانت الغيبة فى مكان معلوم أو مجهول، وحد الغيبة الطويلة سنة على القول المعتمد عندهم.

وعلى هذا إذا غاب الزوج عن زوجته وكان فى مكان معلوم تصل إليه الرسائل أرسل القاضى إليه وأمهله مدة مناسبة لعودته، وطلب منه الحضور لأخذ زوجته معه أو يطلق عليه، فإن حضر وأخذ زوجته معه لا يطلق عليه القاضى، لزوال السبب الذى يبيح التفريق بينهما، وإن لم يحضر وانتهت المدة المحددة له طلق القاضى عليه زوجته.

فإن كان فى مكان مجهول، أو فى مكان معلوم ولكن لا تصل إليه الرسائل طلق القاضى عليه فى الحال؛ لأنه لا فائدة فى الانتظار مادام المكان مجهولا، أو معلوما لا تصل إليه الرسائل.

وأما الحنابلة فهم يجوزون التفريق بين الزوجين للغيبة إذا كانت بدون عذر فقط، وحد الغيبة الطويلة عندهم ستة أشهر أخذا بعمل عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقد روى أنه سأل ابنته السيدة حفصة أم المؤمنين - رضى الله عنها - فقال: يا بنية، كم تصبر المرأة عن زوجها؟ فقالت: سبحان الله! مثلك يسأل مثلى عن هذا؟ فقال لولا أنى أريد النظر للمسلمين ما سألتك. قالت خمسة أشهر أو ستة. فوقت للناس فى مغازيهم ستة أشهر[1].

ومنذ صدر القانون رقم ٢٥ لسنة ١٩٢٩ والعمل جار على مذهب المالكية والحنابلة فى هذا الموضوع وهذا نص المادة رقم ١٢، ١٣ من القانون المذكور:

مادة ١٢ - إذا غاب الزوج سنة كاملة فأكثر بلا عذر مقبول جاز لزوجته أن تطلب إلى القاضى تطليقها طلاقًا بائنا، إذا تضررت من بعده عنها، ولو كان له مال تستطيع الإنفاق منه.

مادة ١٣ - إن أمكن وصول الرسائل إلى الغائب ضرب له القاضى أجلا وأعذر إليه بأنه يطلقها عليه إن لم يحضر للإقامة معها، أو ينقلها إليه، أو يطلقها، فإذا انقضى الأجل ولم يفعل ولم يبد عذرا مقبولا فرق القاضى بينهما بتطليقة بائنة، وإن لم يكن وصول الرسائل إلى الغائب طلقها القاضى عليه بلا إعذار وضرب أجل.

ونحن إذا نظرنا فى هاتين المادتين نجد أن القانون قد اشترط لجواز التفريق بين الزوجين للغيبة ألا تكون بلا عذر مقبول - كما هو رأى الإمام أحمد - وبناء عليه لو غاب الزوج عن زوجته بسبب السفر فى بعثة علمية أو بسبب التجارة أو ما شاكل ذلك لا يجوز التفريق بين الزوج وزوجته بسبب هذه الغيبة ومثل الغائب بعذر فى هذه الأحكام الأسير والمعتقل.

وقد اعتبر القانون مدة الغيبة سنة فأكثر وذلك مأخوذ من مذهب الإمام مالك رضي الله عنه، وهى سنة شمسية عدد أيامها ٣٦٥ يوما.

---

(١) انظر فى ذلك كتاب الأحكام الشرعية للأستاذ الفاضل الشيخ زكى الدين شعبان.

التفريق لحبس الزوج :

أجاز القانون رقم ٢٥ لسن ١٩٢٩ التفريق لحبس الزوج، ولم يكن معمولا بذلك من قبل صدور هذا القانون، وقد نصت المادة رقم ١٤ من هذا القانون على ذلك ونصها:

«لزوجة المحبوس المحكوم عليه نهائيا بعقوبة مقيدة للحرية مدة ثلاث سنين فأكثر أن تطلب إلى القاضى بعد مضى سنة من حبسه، التطليق عليه بائنا للضرر، ولو كان له مال تستطيع الإنفاق منه».

ويفهم من هذه المادة أنه إذا حكم على الزوج مدة ثلاث سنين فأكثر، وكان هذا الحكم نهائيا فيجوز للزوجة بعد مضى سنة على حبس زوجها أن تطالب القاضى بالتفريق بينها وبين زوجها وعلى القاضى أن يحكم لها بتطليقها من زوجها طلقة بائنة، وذلك لرفع الضرر الذى وقع عليها لبعد زوجها عنها سنة كاملة، وهذه مدة تستوحش فيها الزوجة وتتضرر فعلا والقاضى هو الذى نصب لرفع الضرر عن الناس.

وقد اشترط القانون أن تكون مدة الحبس ثلاث سنين فأكثر، وبذلك تعتبر عودة الزوج غير قريبة، والزوجة تتضرر بذلك ضررا حقيقيا، فيجوز لها أن تطلب التفريق بينها وبين زوجها، والقضاء يجيبها إلى طلبها، لرفع الضرر عنها.

فإن كانت مدة الحبس أقل من ثلاث سنين، فلا يجوز للزوجة أن تطالب بالتفريق بينها وبين زوجها، لفقد شرط المدة، ولاشك أن مدة الحبس إذا قلت عن ثلاث سنين فتعتبر عودة الزوج عودة قريبة، ومن الممكن أن تصبر المرأة على بُعد الزوج عنها حتى يعود، وعلى هذا إذا طالبت الزوجة بالتفريق بينها وبين زوجها المحبوس سنة واحدة أو سنتين، لا تجاب إلى طلبها وترفض دعواها.

الفصل الخامس
فى
الأم فى ضوء الكتاب والسنة

مقدمة:

الأم فى اللغة العربية: هى أصل الشىء، وتطلق على أمور كثرة، فيقال: مكة أم القرى،والأم: الوالدة والجمع أمهات، وأصل الأم: أمهة، ولذلك تجمع على أمهات، وتصغير الأم: أميمة، ورئيس القوم: أمهم، وأم النجوم المجرة، وأم الطريق: معظمة، وأم الدماغ: الجلدة التى تجمع الدماغ، ويقال لها أم الرأس[1].

الأم فى القرآن الكريم

ذكرت مائة مرة بإضافات مختلفة، فقد وردت مضافة إلى اللفظ وذلك فى أم الكتاب كما فى قوله تعالى ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾[2].

وقوله تعالى: ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾[3].

وأم القرى : وذلك فى قوله تعالى: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا﴾[4].

وأم موسى: وذلك فى قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾[5].

---

(١) انظر مختار الصحيح ص ٢٥.

(٢) الآية رقم ٧ من سورة آل عمران.

(٣) الآية رقم ٣٩ من سورة الرعد.

(٤) الآية رقم ٩٢ من سورة الأنعام.

(٥) الآية رقم ٧ من سورة القصص.

وقوله تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾(١).

وقد وردت مضافة للضمير، وذلك فى قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾(٢).

وقوله تعالى: ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى (٣٦) وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى (٣٧) إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى﴾(٣).

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾(٤).

وقوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾(٥).

وقوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾(٦).

الأم فى السنة النبوية الشريفة:

والأم فى السنة النبوية المطهرة لها منزلة كبيرة بينها لنا رسول الأمن والسلام ﷺ فى عدة أحاديث تدل على فضل الأم، وعلى تكريمها وإعزازها وتقديرها، وأذكر منها على سبيل المثال لا الحصر ما يلى:

عن أبى هريرة رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله من أحق بحسن الصحبة؟ قال: «**أمك ثم من؟ قال أمك، ثم من؟ قال أمك، ثم من؟ قال أبوك**».

وفى رواية يا رسول الله من أحق الناس بحسن الصحبة؟ قال: ««**أمك، ثم أمك، ثم أمك، ثم أبوك. ثم أدناك أدناك**». ومعنى أدناك أدناك: الأقرب فا الأقرب(٧).

---

(١) الآية رقم ١٠ من سورة القصص.
(٢) الآيات رقم ٣٦، ٣٧، ٣٨ من سورة طه.
(٣) الآية رقم ٢٨ من سورة مريم.
(٤) الآية رقم ٥٠ من سورة المؤمنون.
(٥) الآية رقم ١٤ من سورة لقمان.
(٦) الآية رقم ١٥ من سورة الاحقاف.
(٧) البخارى ٥٩٧١ ومسلم ٢٥٤٨.

وعن عبدالله بن عمرو بن العاص - رضى الله عنهما - قال: أقبل رجل إلى نبى الله ﷺ فقال: أبايعك على الهجرة والجهاد أبتغى الأجر من الله - تعالى - قال: «فهل لك من والديك أحد حى؟ قال: نعم، قال: فارجع إلى والديك فأحسن صحبتهما» متفق عليه وهذا لفظ مسلم[1].

وفى رواية لهما: جاء رجل فاستأذنه فى الجهاد فقال: «**أحى والداك؟**» قال: نعم، قال: «ففيهما فجاهد».

وعن أبى أسيد مالك بن ربيعة الساعدى - رضي الله عنه - قال: بينا نحن جلوس عند رسول الله - ﷺ - إذ جاء رجل من بنى سلمه فقال: يا رسول الله هل بقى من بر أبواى شىء أبرهما به بعد موتهما؟ فقال: «**نعم الصلاة عليهما، والاستغفار لهما، وإنفاذ عهدهما، وصلة الرحم التى لا توصل إلا بهما، وإكرام صديقهما**»[1].

وهذه النصوص من الكتاب والسنة تبين لنا فضل الأب وفضل الأم ولا شك أن فضل الأم أكثر من فضل الأب لقول الرسول ﷺ: «أمك ثم، أمك، ثم أمك، ثم أبوك» وقد استحقت الأم هذا التفضيل؛ لأنها سبيل إلى بقاء النوع الإنسانى، فلولا الأم ما كان الأبناء رجال المستقبل، وما كانت البنات أمهات المستقبل، فالمرأة صنو الرجل وشقيقته فى هذه الحياة، فهى التى يتزوجها الرجل، وهى التى تحمل وتلد، وترضع، وتحضن وتربى وتفطم، وتضحى براحتها فى سبيل أسعاد زوجها وأولادها، وتسهر وتمرض حتى تعود البسمة إلى ولدها المريض، وزوجها الحبيب، ومن هنا كان فضلها - بعد الله - عضظيم، وجزاؤها عند المولى - جل وعلا - كبير، وصدق رسول الله: ﷺ - إذ يقول: «الجنة تحت أقدام الأمهات».

ولا شك إن فضل الأم أكثر من فضل الزب، لقول الرسول الكريم ﷺ : «أمك، ثم أمك، ثم أمك، ثم أبوك».

---

(١) البخارى ٣٠٠٤ ومسلم ٢٥٤٩.

(٢) رواه أبو داوود ورقمه ٥١٤٢.

الزوجة الأم

لقد أمرالله - تعالى - الرجال بالزواج من النساء، وقال لهم فى القرآن الكريم: ﴿فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلاَّ تَعُولُوا﴾[1].

وقال تعالى: ﴿وَأَنْكِحُوا الأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾[2].

الزواج نعمة كبرى

ومن نعم الله - تعالى - على عباده أنه أنعم عليهم بنعم كثيرة لا حصر لها ولا عد، بينها لنا القرآن الكريم فى سورة الروم، بدأها بقوله: جل جلاله ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ (٢٠) وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[3].

والله - سبحانه وتعالى - يبين لنا فى هاتين الآيتين نعمة الخلق الذى بدأه بخلق أبينا آدم - عليه السلام - من التراب، وخلق أمنا حواء من ضلع من أضلاع آدم، لتكون جزءًا منه، وقد جرت سنة الله فى خلقه أن الجزء من الشىء يكمله، فأمنا حواء تكمل أبانا آدم - عليه السلام - لأنها كما أراد الله زوجته فى الجنة، وأم أولاده فى الدنيا بعد خروجهما من الجنة ونزولهما إلى الأرض.

وهكذا كانت سنة الله فى خلق هذا الإنسان الذى كرمه الله - تعالى - على سائر خلقه، فقال فى كتابه الكريم: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾[1].

ولا شك أن السكن الروحى بين الزوجين، وإشاعة البهجة والعطف والرحمة والمودة بينهما إنما هو الأمن والأمان الذى ينبغى على كل منهما أن يكون عونًا للآخر؛ لوجود هذه المعانى السامية التى تجعل الحياة سعيدة سعادة لا حدود لها، يحبها كل منهما، ويحرصان على العيشة الراضية حتى يحققا الغاية من خلقهما، التى بينها الله - تعالى - فى كتابه الكريم بقوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ (٥٦) مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ (٥٧) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾[2].

---

(١) الآية رقم ٧٠ من سورة الإسراء.

(٢) الآيات ٥٦، ٥٧ ، ٥٨ من سورة الذاريات.

الأولاد نعمة:

والزواج سبيل إلى وجود النسل، والمحافظة على بقاء النوع الإنسانى، ومن أجل ذلك فقد يسر الإسلام الزواج غاية التيسير، وذلك للقضاء على عنوسة النساء، والمحاربة الرذيلة حتى لا تشيع الفاحشة بين أفراد المجتمع الإسلامى، الذى يريد الله - تعالى - منه إن يكون خير أمة أخرجت للناس.

والزواج من المرأة ليس تمليكًا، وقد جرت عادة بعض الناس أن من يدفع أكثر من الآخر يكون أولى بالشىء المعروض للبيع، والله - تعالى - قد جعل الزواج سكنا روحيا، ومودة ورحمة متبادلة بين الزوجين، وليس الهدف منه الحصول على اللذة الجنسية وحدها، وإنما هو أعلا وأسما من ذلك، وإن كان يترتب عليه إشباع الشهوة الجنسية التى خلقها الله - تعالى - فى الرجل والمرأة على السواء، ولكن الله - جلت قدرته - جعل الزواج سبيلا شريفًا، وطريقًا حسنًا مأمونًا لإيجاد النوع الإنسانى عن طريق الزواج المشروع، الذى جعله الله - تعالى - نعمة من نعم الله العديدة التى لا تعد ولا تحصى، ويتضح ذلك من قوله تعالى: ﴿**وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ**﴾[1].

ويتضح هذا التيسير الكبير للحصول على الزوجة الفاضلة التى تكون عونا لزوجها على الدهر، ولا تكون عونًا للدهر على زوجها، وأمنا وسلامًا وراحة وهدوءًا لبيتها، فهى الزوجة المطيعة لزوجها، وهى الأم الحنون لأودها، وهى الممرضة الرحيمة بأسرتها، وهى المربية الفاضلة والمدرسة الناجحة لأبنائها، تربيهم على السمع والطاعة، وتعودهم على الصلاة منذ نعومة أظفارهم، وتكون لهم مثالاً طيبًا كريمًا فى سلوكهم مع الناس، وفى سلوكهم مع الله الذى خلقهم ورزقهم وأنعم عليهم بنعمة العديدة التى أنعم الله - تعالى - بها عليهم.

الأم عماد الأمن والأمان فى الأسرة:

ومما لا شك فيه أن الأم التى آمنت بربها، وأتمرت بأمره، وانتهت بنهيه، لابد أن تكون عنصرًا مهما من عناصر النجاح فى التربية الحسنة السليمة، وعنوانًا

(١) الآية رقم ٧٢ من سورة النمل.

واضحًا كبيرًا لأمهات المستقبل، وصدق شاعر النيل/ حافظ إبراهيم فى قوله:

الأم مدرسة إذا أعددتها أعددت شعبا طيب الأعراق

والأم حقا هى عماد الأمن والأمان فى الأسرة، فإذا كانت مؤمنة حقا، تعرف ما أوجبه الله - تعالى - عليها لزوجها، وتحافظ على هذه الحقوق فتؤديها بنفس راضية وتراعى الله - جل وعلا - فى أداء هذه الحقوق، فلا شك أنها تكون أمنا وسلامًا للأسرة كلها، وحبا وعطفا وحنانا لزوجها، وبذلك تجعل البيت جنة ترفرف عليها راية الأمن والسعادة.

والأم التى أراد الله لعباده المؤمنين، هى التى تكون أما عن طريق الزواج المشروع الذى أحله الله لعباده المؤمنين، وليست عن طريق المعاشرة الجنسية المحرمة، فالولد قد يأتى عن الطريق المشروع، وقد يأتى عن الطريق الذى حرمه الله - تعالى - على عباده المؤمنين، وشتان بين الطريقين، فالولد الذى يأتى عن طريق الزواج المشروع يكون مكملا للسعادة الزوجية، به تقر عيون والديه، ويفرح به ذووه وأهله ويكون أمنا لأمه وامتدادا لأبيه وسعادة لوالديه.

وأما الولد الذى يأتى عن طريق المعاشرة الجنسية المحرمة، فلا يكون أمنا لهذا الرجل الذى تسبب فى وجوده، ولا يكون أمنا لهذه المرأة الذى حملت به من سفاح، وإنما يكون سببا لإقامة حد الزنا على هذا الرجل وعلى هذه المرأة، وقد بين الله - جل جلاله - هذا الحد على هذا الرجل الزانى، وعلى هذه المرأة الزانية فقال: ﴿**الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلاَ تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢) الزَّانِي لاَ يَنْكِحُ إِلاَّ زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لاَ يَنْكِحُهَا إِلاَّ زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ**﴾[٢].

وهذا الحد بالنسبة للزانى والزانية البكر اللذان لم يسبق لهما الزواج قبل وقوع جريمة الزنا منهما.

أما الزانى المحصن والزانية المحصنة اللذان سبق لهما الزواج قبل وقوع هذه

---

(١) الآيتان ٢، ٣ من سورة النور.

الجريمة فقد جعل الله - تعالى - عقوبتهما هى الرجم بالحجارة حتى الموت، وما ذلك إلا من اجل الردع والزجر لكل من تسول له نفسه بالوقوع فى هذه الجريمة الفاحشة، ولهذا قال رسول الله - ﷺ - فى هذا الحديث عن عباده بن الصامت قال: قال رسول الله - ﷺ - «**خذوا عنى، خذوا عنى، فقد جعل الله لهن سبيلاً، البكر بالبكر جلد مائة ونفى سنة، والثيب بالثيب جلد مائة والرجم**»[1].

وقد أجمع العلماء على وجوب جلد البكر الزانى مائة ورجم المحصن ولم يخالف فى هذا إلا الخوارج وبعض المعتزلة كالنظام وأصحابه.

وقد اختلف العلماء فى الجمع بين الجلد والرجم للثيب، والجمهور على خلافه، وقالت طائفة يجمع بينهما، وهو قول على والحسن البصرى وإسحاق بن راهوية وأهل الظاهر[2].

ومن هنا نقول بصوت عال: الزواج أمن وأمان وحب وعطف وحنان للأم والأب والأبناء.

حقوق الأم

لقد أنعم الله - تعالى - على الزوجة بالحمل المشروع من زوجها الذى أحلها الله - تعالى - له، وبالطبع الحمل له أشهر معدودة، وبعد إكتمالها بإذن الله يأتى بالفرج وتلد المرأة مولودها، وحينئذ يوجب الفقهاء على هذه الأم أن ترضع ولدها اللبأ، وهو أول ما ينزل من ثدييها بعد الولادة، وهذا حكم عام يشمل جميع الأمهات سواء كن من اللواتى تقوم بالإرضاع حسب العرف الجارى، أو كن من اللاتى يستأجرن المراضع لأولادهن، وما كان هذا الوجوب إلا من أجل المحافظة على حياة المولود؛ لأن الرحمن الرحيم بعباده جعل هذا اللبأ بالنسبة لهذا المولود تتوقف عليه حياته غالبًا، وقد جعله الله - تعالى - مركزًا به كل عناصر التغذية لهذا الصغير.

---

(١) رواه مسلم رقم ١٢٣٢ وبلوغ المرام من أدلة الأحكام ص ٢٥٦.

(٢) نفس المصدر ص ٢٥٦ بالهامش.

وكما أن هذا الأمر واجب على الأم أن تقوم به لمولودها، فقد جعل الله - تعالى - لهذه الأم حقوقًا لابد من حصولها عليها، ومن هذه الحقوق ما يلى:

حق النسب:

لقد جعل الله - تعالى - النسب نعمة من النعم التى امتن الله بها على عباده فقال: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾(١).

وشأن المولود الذى يستحق هذه النعمة وتستحقها الأم التى ولدته، والأب الذى أنجبه أن يأتى عن طريق الزواج المشروع الذى أحله الله لعباده المؤمنين، ومن هنا فقد حرم - الله تعالى - : التبنى الذى كان مشروعًا فى الجاهلية قبل الإسلام، وقال الله - تعالى -: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ (٤) ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ﴾(٢).

ويقول رسول الله - ﷺ - «**الولد للفراش وللعاهر الحجر**»(٣).

ومن أجل الإعتراف بحق الوالدين فى نسب الأولاد إليهما، نجد رسول الله ﷺ يشدد على إنكار النسب من الاباء، أو من الأبناء، فيقول فيما رواه أبو هريرة رضي الله عنه -: «**أيما رجل جحد ولده وهو ينظر إليه احتجب الله منه يوم القيامة وفضحه على رؤس الأولين والآخرين**»(٤).

ومعنى وهو ينظر إليه: أى يعلم أنه ولده، ولا شك أن هذا الإنكار يعرض الولد وأمه للذل والعار والصغار فى هذه الحياة الدنيا، وهذا ظلم وجور ما بعده ظلم.

وإذا كان هذا الحق للمولود ولأمه فهو كذلك حق للوالد، ومن هنا فقد أنكر الرسول - ﷺ - على الإبن الذى ينكر أبوته، وينتسب إلى غير أبيه، ولا شك أن هذا الإنكار يترتب عليه المساس بشرف أمه، واتهامها بأنها حملت به من غير

---

(١)الآية رقم ٥٤ من سورة الفرقان.
(٢) الآيتان ٤، ٥ من سورة الأحزاب.
(٣) نيل الأوطار ج ٦ ص ٢٧٩.
(٤) سبيل السلام ج ٣ ص ١٩٣.

أبيه، وهذا جرم كبير فى حق الوالدين، ومن هنا قال رسول الله - ﷺ -: «من ادعى إلى غير أبيه وهو يعلم أنه غير أبيه فالجنة عليه حرام».

وقال أيضا: «لا ترغبوا عن أبائكم فمن رغب عن أبيه فقد كفر»[1].

ومعناها: كفر بنعمة أبيه عليه.

وكما حذر النبى - ﷺ - الأب من نفى ولده وهو يعلم أنه من صلبه، وحذر الولد من نفى نسبه من أبيه وهو يعلم أنه أبوه، فقد حذر الأم أن تنسب إلى زوجها من ليس منه؛ لأنه اعتداء على حق الأب وعلى حق الولد، ولذلك قال رسول الله - ﷺ -: «أيما امرأة أدخلت على قوم من ليس منهم فليست من الله فى شىء، ولن يدخلها جنته»[2].

حق الرضاع

لقد أوجب الله - تعالى - على الأم أن تقوم بإرضاع ولدها بقوله: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ﴾[3].

والآية الكريمة وإن كان لفظها خبرًا، إلا أنها فى معنى الأمر، وهو يدل على الوجوب دلالة مؤكدة، ولا خلاف بين العلماء فى وجوب الإرضاع على الأم من الناحية الدينية؛ لأنها أكثر الناس شفقه وحنانًا وعطفًا على ولدها، ولبنها أفضل للمولود من كل لبن أخر كما يقول الأطباء، ومن فضل الله - تعالى - أنه يجعل لبن الأم مناسبًا لولدها على حسب سنه.

ولا تستحق الأم أجرة على إرضاع ولدها إذا كانت زوجة، أو كانت مطلقة طلاقًا رجعيًا ولا زالت فى العدة؛ لأنها تجب لها النفقة على زوجها فى هاتين الحالتين، ولا تجتمع مع النفقة أجرة الرضاع، فإن طلقت طلاقًا بائنًا وانقضت عدتها وسقطت نفقتها فإنها تستحق أجرة الرضاع لولدها وتكون أولى بالإرضاع من المرأة الأجنبية.

---

(١) رواه مختصر صحيح البخارى ج ٢ ص ٤٩٢.

(٢) نيل الأوطار ج ٦ ص ٢٧٩.

(٣) الآية رقم ٢٣٣ من سورة البقرة.

وقد أوجب الله - تعالى - نفقة الصغير على أبيه إذا لم يكن للصغير مال، وأوجب الله - تعالى - كذلك أجرة الرضاع على أبيه، وقال الله تعالى: فى ذلك ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾[1].

وهذا أمر من الله - تعالى - بإعطاء الأجرة على الإرضاع للأمهات اللاتى يقمن بالأرضاع. وأجرة الإرضاع من النفقة الواجبة للصغير وتستحق من وقت الإرضاع، وتكون دينا لا يسقط إلا بالأداء أو الإبراء.

ولا شك أن الأم أولى بإرضاع ولدها من غيرها من النساء؛ لأنها أكثر الناس عطفًا عليه وشفقة به، فإذا رغبت أمه إرضاعه بدون أجر فليس لأبيه أن يمنعها من ذلك؛ لأن إرضاعها لولدها فيه مصلحة الصغير، ومنعها من إرضاعها لولدها فيه إضرار لها، والله - تعالى - قد نهى عن ذلك بقوله: ﴿لاَ تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلاَ مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ﴾[2].

حق الحضانة

والحضانة هى القيام على تربية الطفل ورعاية شئونه ممن له حق تربيته شرعًا.

وهى أحد الولايات التى تثبت على الطفل منذ ولادته، فهو محتاج إلى من يقوم برعايته والعناية به؛ لأنه عاجز عن القيام بأمر نفسه، ولهذا كان من الطبيعى أن تناط بوالديه لأنهما أقرب الناس إليه وأكثرهم شفقة وعطفًا وحنانًا عليه.

والطفل يمر فى حياته بأطوار مختلفة، وتختلف الولاية عليه باختلاف هذه الأطوار، فهو بعد ولادته محتاج إلى ولاية النساء؛ لأنه لا يمكنه أبدًا الاستغناء عنهن فى هذا الطور الأول من حياته، وهذه هى الولاية الأولى، وهى ولاية التربية وتسمى بالحضانة.

وهى من حقوق الأم، والدليل على ذلك ما رواه عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عبدالله بن عمرو أن امرأة قالت يا رسول الله: إن هذا كان بطنى له وعاء،

---

(١) الآية رقم ٦ من سورة الطلاق.

(٢) الآية رقم ٢٣٣ من سورة البقرة.

وثديى له سقاء، وحجرى له حواء، وإن أباه طلقنى وأراد أن ينتزعه منى؟ فقال لها النبى - ﷺ -: «أنت أحق به ما لم تنكحى»[1].

فهذا الحديث النبوى الشريف يدل دلالة واضحة على أن الحضانة حق للأم ما لم تتزوج، وقد أجمع االصحابة - رضوان الله عليهم - على هذا الأمر، وكان هذا الإجماع فى عصر الخليفة الأول أبى بكر الصديق - رضي الله عنه - فقد قضى أبو بكر على عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - أن يترك ابنه عاصم مع أمه التى طلقها عمر، وحصل بينهما نزاع على حضانة ولدهما عاصم، وقال له: ريحها ومسها ومسحها وريقها خير له من الشهد عندك، وكان ذلك بمحضر من الصحابة، ولم ينكر عليه أحد منهم فكان إجماعًا.

ولا شك أن العقل يؤيد ذلك؛ لأن الأب لا يتولى الحضانة بنفسه فى هذه المرحلة، وإنما يدفع بولده إلى من يقوم بحضانة الصغير، وأمه أولى به ممن يدفعه إليها من النساء.

ومن هنا نقول : أن حكم الحضانة هو الوجوب؛ لأن المحضون يهلك بتركها فوجب حفظه عن الهلاك.

ومن هنا يكون للأم دور هام جدًا فى حماية أبنائها من المخاطر الكثيرة التى يتعرض لها أبناؤها؛ لأنها تقضى معهم معظم أوقاتها فى هذه المرحلة الأولى من حياتهم، والطفل فى هذه المرحلة يحتاج إلى مراقبة شديدة، وهو موجود معها فى البيت، والأب مشغول بعمله لأجل الحصول على رزقه وقضاء حوائج أسرته، وربما يحتم عليه عمل أن يخرج من بيته فى الصباح الباكر ثم يعود إليه فى المساء، فليس عنده الوقت كافى لمراقبة أولاده، وما دام الأمر كذلك فأمن الأولاد وحمايتهم من الانحراف يرتبط بالأم فى هذه المرحلة من حياة الطفل إرتباطًا كثيرًا؛ لأنها تقضى معظم أوقاتها فى البيت مع أولادها، وتلاحظ وتشرف على تربيتهم، وتقضى لهم حوائجهم، وقد جرت عاده كثير من الناس على الاعتماد على الخدم فى البيت، وواجب الأم أن تراقب الخادمه مراقبة شديدة، ولا تترك

(١) رواه أحمد وأبو داود وصححه الحاكم «شكاه المصابيح ج ٢ ص ٢٣٩» وبلوغ المرام من أدله الأحكام رقم ١١٨٠.

الحبل على الغارب للخادمة تفعل ما تشاء بالنسبة لتربية الطفل والإشراف عليه، ولا شك أن هذا خطر كبير، فقد تكون الخادمة كافرة أو غير متدينة، وتقوم بتعليم الأبناء عادات سيئة لا تتمشى مع تعاليم الإسلام، وهنا تكون الخطورة، والطفل كالشجرة الصغيرة إذا عدلتها اعتدلت، وإذا تركتها بدون تعديل كبرت معوجة ولا تستطيع تعديلها بعد ذلك، ومن هنا نجد رسول الله - ﷺ - يحث المسلمين على تعليم الصلاة التى هى عباده لله - تعالى - فى المرحلة الأولى من مراحل العمر فيقول: «**علموا أولادكم الصلاة لسبع واضربوهم عليها لعشر، وفرقوا بينهم فى المضاجع**»(١).

وهذا أدب إسلامى هام أغفله كثير من الناس، وقد نتج عنه خطر كبير، ونحن نقرأ فى الصحف هذه الأيام اعتداء الأخ على أخته جنسيا، أو اعتداء الأخ على أخيه باللواط، وما ذلك إلا من أجل مخالفة هذا الحديث النبوى الشريف، وقد جاء فى كتاب «طوق الحمامه» لابن حزم أن امرأة من العرب سئلت وقد حبلت من ذا قرابة لها: ما ببطنك؟ فقالت قرب الوساد، وطول السواد، تشير إلى هذه الفاجعة كانت نتيجة الاشتراك فى الفراش أو قربه وكثرة الاختلاط بين أقربائها»(٢).

ولا شك أن نظرية التفريق بين الأولاد فى المضاجع التى أمرنا بها رسول الله - ﷺ - منذ خمسة عشر قرنًا من الزمان، تدل على سمو الإسلام وتقدم مبادئه، والمعاشرة بالمعروف، بين الأم، وبين الأب، وبين الأبناء، وبين الناس جميعًا. لا فرق بين غنى وفقير، ولا بين حاكم ولا محكوم فكل الناس دينهم واحد، وربهم واحد، وهو الذى يحاسبهم على ما بدر منهم، ولا بظلمهم وصدق الله إذ يقول فى كتابه الكريم: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لاَ يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا**﴾(٣).

---

(١) رواه أحمد وأبو داود وهو حديث صحيح.
(٢) تحفة العروس ص ٢٢٠.
(٣) الآية ٤٠ من سورة النساء.

حواء أم البشر

لقد خلق الله - تعالى - آدم عليه السلام - من طين، وفضله على الملائكة، وحينما عرفوا ذلك قالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾[1].

وكان ذلك السؤال من الملائكة لعدم علمهم بخلافة آدم - عليه السلام - وليس اعتراضًا ولا إنكارًا على - الله - تعالى -؛ لأنهم عباد الله المقربون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون.

وقد أجابهم المولى - جل وعلا - بقوله: ﴿إنى أعلم ما لا تعلمون﴾، وأمرهم بالسجود لأدم بقوله: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾[2].

وقد استجاب الملائكة للأمر وسجدوا لأبينا آدم - عليه السلام - وأبى إبليس واستكبر وكان من الكافرين، وحينما سأله المولى - جل وعلا - عن سبب عدم سجوده وتخلفه قال: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾[3].

ومن أجل عصيانه ومخالفته لأمر الله - تعالى - طرده الله من الجنة وقال له: ﴿ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (٣٤) وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾[4].

والرجيم: هو الملعون والمطرود والمبعد من رحمة الله - جل وعلا -.

وقد طلب إبليس - عليه اللعنة - من الله أن يطيل عمره إلى قيام الساعة؛ ليقوم بوسوته لأدم وذريته، واستجاب الله لطلبه، ومد فى عمره، وقال له: ﴿فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (٣٧) إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾[5].

ومنذ ذلك الحين أعلن إبليس عدواته لآدم وذريته بقوله ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[6]. ثم قال المعلون ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾[7].

---

(١) الآية رقم ٣٠ من سورة البقرة.
(٢) الآية رقم ٢٩ من سورة الحجر.
(٣) الآية رقم ٧٦ من سورة ص.
(٤) الآيتان رقم ٣٤، ٣٥ من سورة الحجر.
(٥) الآيتان ٣٧ ، ٣٨ من سورة الحجر.
(٦) الايتان ٣٧، ٣٨ من سورة الحجر.
(٧) الآية رقم ١٧ من سورة الأعراف.

وحينئذ تذكر المعلون أن هناك من البشر من يغلبونه ولا يقدر عليهم فقال: ﴿إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾[1].

وبعد خلق آدم - عليه السلام - خلق الله - تعالى - حواء من ضلع من أضلاع آدم الشمالية، وتتضح الحكمة من خلق حواء من جزء من جسم آدم - والله أعلم - أنها مادامت جزءًا منه تتعلق به، وتعتمد - بعد الله عليه وتحن له - وتكمل سعادته فى الجنة، وقال الله - تعالى - لهما: ﴿اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلاَ مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾[2].

وقد جعل الله لأنينا آدم - عليه السلام - وأمنا حواء كل وسائل الراحة والنعيم وقال لهما: ﴿إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيهَا وَلاَ تَعْرَى (١١٨) وَأَنَّكَ لاَ تَظْمَأُ فِيهَا وَلاَ تَضْحَى﴾[3].

ومعنى لا تضحى: أى لا يؤذيك حر الشمس.

ومن هنا بدأ إبليس فى وسوسته، وأخذ يقوم بتنفيذ عدواته، وأوهمهما بأنه ناصح أمين لهما، وعطوف وشفوق بهما، وقال لهما: ﴿مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾[4].

وضحك عليهما إبليس اللعين، وخالفا أمر الله، وأكلا من الشجرة، فكان ذلك سببًا لخروجهما من الجنة، وقال الله - تعالى - لهما - ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾[5].

وحينئذ أدرك أبونا آدم - عليه السلام - وأمنا حواء مخالفتهما لأمر ربهما فتابا وأنابا وندما على فعلتهما وقالا: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٢٣) قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾[6].

---

(١) الآية رقم ٤٠ من سورة الحجر.
(٢) الآية رقم ٣٥ من سورة البقرة.
(٣) الآيتان ١١٨ ، ١١٩ من سورة طه.
(٤) الآية رقم ٢٠ من سورة الأعراف.
(٥) الآية ٢٢ من سورة الأعراف.
(٦) الآيتان ٢٣، ٢٤ من سورة الأعراف.

وقد أمرهما الله - تعالى - بالهبوط من الجنة، وأنبأهما أن العداوة بينهما وبين إبليس ستظل قائمة ودائمة، وذلك ليحذر فتنته، ولا ينساقا إلى وسوسته وإغوائه وقال لهما: ﴿اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلاَ يَضِلُّ وَلاَ يَشْقَى﴾[1].

ومن هنا بدأ أبونا آدم - عليه السلام - وأمنا حواء - رضى الله عنها - على الأرض فى العمل، وبدأ نظام الحياة البشرية التى يريدها الله لعباه، وحملت أمنا حواء حملها وكان توأمين قابيل وأخته ثم هابيل وأخته، وهكذا، ولما شب الإخوة وكبر الصغير وسهل العيش للأسرة، وإنتشر الأمن والسلام على هذه الأسرة السعيدة الطاهرة، ومرت الأيام وقويت الغريزة عند الأولاد، ومال البنون والبنات إلى الزواج؛ لأن الله - جلت قدرته - جعله الطريق المشروع الذى يؤدى إلى تكاثر الإنسان فى هذه الحياة؛ لتتحقق الغاية من الخلق، ويعبد الناس رب العالمين، وقد أوحى الله - تعالى - لأبينا آدم أن يزوج الابن الذى جاء من البطن الأولى إلى أخته التى جاءت من البطن الثانية، ولكن الشيطان اللعين الذى توعد بنى آدم بالإضلال لا يترك هذا الأمر يمر بسلام، فأوقع بين الأخوين، وكانت أول جريمة قتل تقع على الأرض، فقتل قابيل أخاه هابيل؛ لأن أخت قابيل أجمل من أخت هابيل التى أشار أبوهما عليهما بالزواج منهما، وكانت فرصة إبليس اللعين أن ينفذ وعده ويوقع العداوة والبغضاء بين الأخوين، وكانت نتيجة وسوسته وعداوته قتل قابيل لأخيه هابيل، ورغم وقوع هذه الجريمة فالحياة لابد أن تسير، وأمنا حواء لابد أن تلد مادام زوجها معها، ويحصل التكاثر، ويزيد عدد البشر باستمرار حتى ضاقت الأرض بأولاد أبينا آدم وأمنا حواء.

أم موسى - عليه السلام:

كان فرعون ملك مصر، ملكًا جبارًا كافرًا، وكان بنو إسرائيل فى مصر، يعيشون فى عهده عيشة كلها بلاء وشدة، ويتقدم الكاهن إلى فرعون ويقول له: إن مولودًا يولد فى بنى إسرائيل يكون ضياع ملكك على يديه، وهنا نثور ثائره فرعون،

---

(١) الآية ١٢٣ من سورة طه.

ويمعن فى غيه وينفتق ذهبه على ذبح كل مولد يولد لبنى إسرائيل من البنين دون البنات، وظن هذا الكافر أنه بهذا سيحافظ على ملكه، ويقضى على عدوه فى المستقبل، ولكن أنى له ذلك؟.

والله - تعالى - هو القادر على كل شىء، إذا أراد شيئًا أن يقول له كن فيكون، فقد جلست يوكابد فى منزلها، وجاءها المخاض، وأرسلت ابنتها إلى القابلة التى تساعدها فى ولادتها، ووضعت وليدها وسمته موسى، ومن شأن الأم أن تخاف على وليدها، وقد تضحى بنفسها من أجل ولدها؛ لأن عاطفة الأمومة أسمى من كل عاطفة، فماذا تفعل أمام هذا الخطر الكبير الذى ينتظر وليدها الذى أحبته حبًا جمًا، وتغلغل هذا الحب حتى ملأ قلبها، فكيف تحافظ على حياته، وتحميه من خطر الذبح؟

ولأمر يريده الله - جلت قدرته - يلهم هذه الأم أن تقوم بعمل صندوق خضبى تضعه فيه، ثم تلقى به فى نهر النيل، وحتى تعرف ماذا يحدث لهذا الوليد بالصندوق الذى يطفو على سطح ماء النهر؟.

وهنا تأمر أخته بالسير على الشاطىء لترى ماذا يحدث لأخيها؟ ويحدث أمام أخت موسى ما يوقف دقات قلبها حينما تجد رجال فرعون يحملون الصندوق بموسى إلى فرعون عدو البنين، ولكن رحمة الله قريبة من هذا الوليد الصغير، فلم تكد تراه امرأة فرعون حتى ملأت محبته شغاف قلبها، فطلبت من فرعون أن يكون ابنًا لهما، ويجيب فرعون الطاغية الجبار القاسى زوجته إلى طلبها ويتركه حيًا دون أن يذبحه.

ولأمر الله - جلت قدرته وتعالت عظمته - ولأجل أن يعيش هذا الوليد لابد له من مرضع يعيش على لبنها ويبحثون عن مرضعة لهذا الوليد، وكلما تأتى واحدة لا يقبل الوليد على ثديها، وهنا تتقدم أخته وتقول لهم: أنا أريد أن أكون للملك من االناصحين، فأمرها فرعون أن تأتى بالمرأة التى تقوم بإرضاعه، وتأتى أم موسى التى سلمت أمرها إلى الله، وتوكلت عليه، واستودعت الله - جلت قدرته - وليدها وهى ثابتة الإيمان، وموقنة تمام اليقين أن الله حافظه وحاميه وراعيه، ويعرض عليها الطفل فيقبل على ثديها بعد أن رفض وأعرض عن كل ثدى آخر سواه.

وهنا يقول فرعون والدهشة تملؤه لها: من أنت؟ فقد أبا كل ثدى إلا ثديك؟ فترد أم موسى عليه بقولها: إنى امرأة طيبة الريح، طيبة اللبن، لا أوتى بصبى إلا قبلنى، ويصدق فرعون كلامها ويعطيها المولود الصغير فترجع به إلى بيتها، ويتكفل فرعون بالإنفاق عليه نظير إرضاع هذا الصغير، ويكافئها الله - تعالى - على إيمانها وصبرها ورضائها بحكم الله بعودة ولدها إليها؛ لتسعد به ويسعد بها، ويتحقق أمر الله أن تكون نهاية فرعون الطاغية على يد هذا الوليد الذى تكفل بتربيته والمحافظة عليه، وصدق الشاعر إذ يقول:

وإذا العناية لاحظتك عيونها نم فالمخاوف كلهن أمان

ولنأخذ من هذه القصة أن الأم مسئولة عن الأمان لأولادها، ويجب عليها أن تكون ناصحة أمنية ومرشدة حريصة، على توفير الأمن والأمان لأسرتها[1].

ولقد نجى الله - تعالى - موسى أولاً بان أوحى إلى أمه أن تضعه فى صندوق ثم ترميه فى النيل وهى لا تخاف عليه من الغرق، وحينما أخذه الجنود إلى فرعون الطاغية وقع نظر امرأته على موسى - عليه السلام - فقالت لفرعون: نتخذه ولدًا، وكان فرعون يحب امرأته، فلم يقتله كما فعل بأولاد بنى إسرائيل الذكور، ولم يرض موسى وهو رضيع أن يقبل على امرأة أخرى، فدلت أخته فرعون على امرأة ترضعه، وهى صالحة، ولا ترضع صغيرًا إلا أخذ ثديها، ورده الله - تعالى - إلى أمه، وأنفق عليه فرعون حتى كبر، وصدق الله - تعالى - إذ يقول فى كتابه الكريم ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾[2].

أم عيسى عليه السلام:

هى مريم بنت عمران من سلالة داود عليه السلام[3].

كانت أمها عاقرًا لا تنجب، وقد غرس الله - تعالى - فى قلب كل زوجة أن

---

(١) انظر فى ذلك قصص القرآن للمرحوم محمد أحمد جاد المولى.

(٢) الآية رقم ١١ من سورة التحريم.

(٣) مختصر تفسير ابن كثير - ج ٢ - ٨٢.

تكون أمًا، لتقر عينها بولدها، تسر برؤياه، وتسعد بوجوده،ويملأ حياة والديه بالهبجة والسرور والسعادة.

وكيف تحصل الزوجة التى كتب الله - تعالى - عليها العقم على الولد، والله - تعالى - يقول فى كتابه الكريم: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ (٤٩) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾[1].

ولم تجد أم مريم أمامها إلا اللجوء إلى رب السموات والأرض، فأخذت تتوسل إليه وتدعوه فى خشوع وخضوع أن يرزقها الله بالولد، وقد نذرت إن أجاب الله دعاءها ومن عليها بنعمة الولد أن تهبه لخدمة بيت المقدس، وليس لخدمتها، ولا شك أن هذا دليل على إشباع رغبتها فى الأمومة، فهى لا تريد ولدها ليعولها، وإنما تريد من الله عليها به؛ لتيحقق رجاؤها ويستجيب دعاؤها.

وقد أجاب الله - تعالى - دعاءها، فحملت به بإذن ربها، وبدأت فى الاستعداد والاستقبال للمولود القادم الذى من الله - تعالى - به عليها، وهى فى غمرة سعادتها وأملها الواسع فى مولودها يأذن الله بموت زوجها، وحينئذ تدمع عيناها دمعًا غزيرًا لفراق حبيبها ووالد ما فى بطنها قبل أن يسعد برؤياه، ومرت الأيام وكملت شهور الحمل، ووضعت أنثى رسمتها مريم، ومعناها: العابد، وحينئذ توجهت إلى الله - تعالى - أن يحفظها ويرعاها، وأن يتقبلها خادمة لبيته، وأن يعيذها وذريتها من الشيطان الرجيم، واستجاب الله دعاءها وقبل هبتها، وأتم نعمته عليها، ورضى أن تكون ابنتها وفاءًا لنذرها، فحملتها وذهبت بها إلى بيت المقدس ودفعتها إلى الأحبار قائلة لهم: دونكم هذه البنت فإنى قد نذرتها لخدمة البيت وتركتها وانصرفت.

وهنا يحصل الجدل والنقاش بين الأحبار فيمن يكفلها ويشرف على تربيتها، ويقول لهم زكريا: أنا زوج خالتها فأعطونى إياها فأنا أولى بها، ولم يخضع الأحبار لرأيه، وكان كل واحد يريد أن يحظى بكفالتها إرضاءا لربه، واضطروا أمام اختلافهم لعمل القرعة بينهم، ورموا أقلامهم فى النهر فغاصت أقلامهم وطفى على الماء قلم زكريا فكان كفيلها والقائم على تربيتها.

وقد أراد زكريا أن يوفر لها أسباب الراحة، ويقوم وحده بخدمتها ويحرم على غيره أن يدخل عليها، فبنى لها غرفة عالية فى بيت المقدس لا سبيل إلى الوصول إليها إلا عن طريق الصعود بالسلم.

وكان يشرف عليها ويرعاها ويتردد عليها فى محرابها، وهو قرير العين وسعيد غاية السعادة برعايتها والعناية بها، واستمر على ذلك، ولكنه رأى شيئًا عندها حيره وشد انتباهه وعجب أشد العجب فيما رآه، فكلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقًا وتحير فى أمرها، وقال فى نفسه: من الذى يحمل إليها هذا الرزق ولم يدخل عليها فى حجرتها غيره، وكثر تفكيره فى أمرها وأراد الوقوف على سرها، ولما تعب من التفكير فى هذا الأمر سألها بقوله: يا مريم أنى لك هذا؟ والأبواب مغلقة عليك، ولا يدخل عليك أحد غيرى؟ فقالت له: إنه من عند ربى، والله يرزق من يشاء بغير حساب، وهنا أيقن زكريا أن الله - جلت قدرته - قد اصطفاها على نساء العالمين، وحينئذ تحركت الرغبة الشديدة عند زكريا أن يهب له الله ولدًا من صلبه، وهو كبير فى السن وقد يئست زوجته من الحمل والولادة، لكن قدرة الله - تعالى - لا حدود له، وهو - سبحانه وتعالى - على ما يشاء قدير، فرفع يديه بالدعاء وقال: ﴿**رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا (٤) وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا (٥) يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا**﴾[1].

وكبرت مريم ومكثت تعبد الله - تعالى - وتخلص له فى عبادتها، وفى خدمة بيته حتى صارت مضرب الأمثال.

وفى يوم من الأيام جاءها ملك من السماء فى صورة بشرية حتى لا تنفر منه ولكنها حاولت الهرب واستعاذت بالله منه، وظنته يريد الاعتداء عليها، وهى المؤمنة الطاهرة العفيفة، فطمأنها وقال لها: ﴿**إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا**﴾[2] أى صالحا.

---

(١) الآيات ٤، ٥، ٦ من سورة مريم.

(٢) الآية رقم ١٩ من سورة مريم.

ورغم هذا الموقف الصعب قالت له: ﴿أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾[1].

قال: ﴿كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا (٢١) فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا﴾[2]. ثم تركها وانصرف.

وحارت مريم فى أمرها، وثقل همها، فكيف تلد وهى عذراء، وماذا يقول الناس عنها؟ وهى من أسرة شريفة، فلم يكن أبوها امرأ سوء، وما كانت أمها بغيا، فكيف تلد من غير زواج؟ وكيف تلوك الألسنة الحديث عن عرضها؟ وماذا تقول للناس عندما تلد مولودها؟ والله إنه لشىء عظيم بالنسبة لفتاة طاهرة عفيفة لم ترتكب إثمًا، ولم تقترف ذنبًا، ولم تعرف رجلاً وهى بريئة براءة الذئب من دم ابن يعقوب - عليهما السلام - واقتربت ساعة الوضع، وأحست بآلام المخاض، ولم تجد أمامها إلا الخروج من القرية، وعندما فاجأها المخاض وولدت طفلها فى الفضاء، وحينما نظرت إلى وليدها تحسرت على نفسها، وعلى ما يقول الناس عنها وقالت: ﴿يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا﴾[3].

وحارت فى أمرها واشتد حزنها، وفى هذه الأثناء سمعت صوتًا يناديها من تحتها ويقول لها: ﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾[4].

فكلى من هذه الرطب حتى تعود إليك قوتك، واشربى من هذا الجدول الذى أجرى الله الماء به، واطمئنى كل الاطمئنان بما أراه الله - تعالى - لك من قدرته على اخضرار جذع النخلة اليابسة وإيجاد الرطب عليها، ولا شك أن هذه المعجزة قدرها الله - تعالى - لها حتى تعيش فى هذه البقعة المقفرة البعيدة عن الناس، وتتم لها بثقتها فى الله - تعالى - أن ينطق الله مولودها ويقول لها: ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا﴾[5].

---

(١) الآية رقم ٢٠ من سورة مريم.
(٢) الآية رقم ٢١ من سورة مريم.
(٣) الآية رقم ٢٣ من سورة مريم.
(٤) الآية رقم ٢٥ من سورة مريم.
(٥) الآية رقم ٢٦ من سورة مريم.

وهنا اطمأنت نفسها،وعاد إليها هدوءها، ورجعت بولدها إلى القرية، وشاع أمرها، وجاء الناس يسألونها ويذكرونها بشرف أسرتها وقالوا لها: ﴿يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا (٢٧) يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾[١].

وحينئذ عقد الحياء لسانها وقالت: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا﴾ وذلك كما قال لها ابنها وأشارت إليه، فتعجب الناس من قولها وقالوا لها: ﴿كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾[٢] وهنا تظهر قدرة الله القادر، وينطق المولود ويقول لهم: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (٣٠) وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَمَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (٣١) وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا (٣٢) وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾[٣].

وكانت براءة مريم على يد ابنها الوليد، وأدرك الناس طهارتها وشرفها، وأيقنوا أن لوليدها شأنًا كبيرًا ينتظره، وأقامت فى القرية تربى ولدها وهى تعلم علم اليقين أن الله - تعالى - سيرعاه ويحفظه بعنايته ورعايته حتى يؤدى رسالته، وينادى بشريعة ربه.

ومن هذه القصة يتضح لنا مدى ما يحدث للأم فى حياتها من حمل وولادة وإرضاع وفطام وحضانة، وتربية تستحق عليها التقدير والاحترام، والدعاء لها بالجزاء الأوفى من الله - تعالى - على ما لاقت من العنت والمشقة فى سبيل الأمومة التى قال النبى - ﷺ - للسائل (أمك ثم أمك ثم أمك ثم أبوك).

وكافأ الله مريم البتول بقوله فى القرآن الكريم بقوله - تعالى -: ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَةَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ﴾[٤].

خديجة أم المؤمنين

هى خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصى بن كلاب بن مرة بن

---

(١) الآيات ٢٧، ٢٨ من سورة مريم.
(٢) الآية رقم ٢٩ من سورة مريم.
(٣) الآيات ٣٠، ٣٣ من سورة مريم.
(٤) الآية رقم ١٢ من سورة التحريم.

كعب بن لؤى بن غالب. وكانت ذات شرف ومال، وقد بلغها عن رسول الله - ﷺ - ما بلغها من صدق حديثه، وعظيم أمانته، وكرم أخلاقه، فبعثت إليه وعرضت عليه أن يخرج فى تجارة لها إلى الشام، وتعطيه أفضل ما كانت تعطى غيره من التجار مع غلامها ميسرة، فقبل رسول الله - ﷺ - وخرج يتاجر فى مالها إلى الشام.

وحينما نزل رسول الله - ﷺ - فى الطريق تحت ظل شجرة قريبا من صومعة راهب - فسأل الراهب ميسرة فقال له: من هذا الرجل الذى نزلت تح الشجرة؟ فقال له ميسرة: هذا رجل من قريش من أهل الحرم، فقال له الراهب: ما نزل تحت هذه الشجرة أحد بعد عيسى بن مريم - عليه السلام - إلا نبى.

وبعد عودة النبى - ﷺ - وميسرة من الشام حدث خديجة بما قال الراهب، وبما رأى من الملكين اللذين يظلانه من شدة الحر وهو يسير على بعيره، وعلى الفور أرسلت خديجة المرأة الحازمة إلى رسول الله - ﷺ - وعرضت نفسها عليه، وقد خطبها له عمه حمزة ابن عبد المطلب - رحمه الله - من أبيها وقيل عمها وقيل أخيها عمرو بن خويلد، وهى أول امرأة تزوجها رسول الله - ﷺ - وهى أم أولاده ما عدا إبراهيم فهو من مارية القبطية التى أهديت له من المقوقس عظيم مصر فى ذلك الوقت.[1]

وقد وقفت خديجة - رضى الله عنها - موقفا كريما مع رسول الله - ﷺ - وكانت معه نعم الزوجة ونعم الصاحبة، ونعم أم أولاده، وحينما نزل عليه الوحى أول مرة طمأنته وشجعته وأخذته إلى ابن عمها ورقة بن نوفل وكان عنده علم بالأديان السابقة فقال لها: أن محمدًا لنبى هذه الأمة، وقد عرفت انه كائن لهذه الأمة نبى ينتظر، وهذا زمانه، ثم قال يا محمد: ليتنى أكون حيا إذ يخرجك قومك: قال: أو مخرجى هم؟ قال نعم: أنه لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودى، وإن يدركنى يومك أنصرك نصرا مؤزرا.

وهو أول من آمن برسول الله - ﷺ - من الرجال، وخديجة أول من زسلم من النساء، وقد قال رسول الله - ﷺ - عنها فى حديث على - رضي الله عنه - سمعت النبى - ﷺ - يقول: (خير نسائها مريم ابنة عمران، وخير نسائها خديجة)[2].

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ط س ١٨٧ وما بعدها.

(٢) أخرجه البخارى ص ٦٠ فى كتاب الأنبياء.

وحديث أبى هريرة - رضي الله عنه - قال: (أتى جبريل النبى - ﷺ - فقال: يا رسول الله: هذه خديجة قد أتت معها إناء فيه آدام أو طعام أو شراب، فإذا هى أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها ومنى، وبشرها ببيت فى الجنة من قصب، لا صخب فيه ولا نصب)[1].

وهذا شأن الزوجة الصالحة والأم الفاضلة التى تراعى زوجها وتقف معه فى السراء والضراء، وتكون له، نعم المعين والأنيس، وتراعى أولادها وتكون لهم مثالا طيبا كريما فى معاملة زوجها وأولادها حتى ينعم البيت بالسعادة تغمر الجميع، وترفرف عليهم راية الأمن والعدل والسلام.

(١) أخرجه البخارى فى ٢٠ باب تزويج النبى - ﷺ - خديجة وفضلها.

الفصل السادس

فى

رعاية الطفل من الناحية الإيمانية

مقدمة:

بناء الطفل من الناحية الإيمانية يحتاج إلى أسرة مؤمنة، تعرف قيمة الإيمان، وتقدر الأشياء وتقيسها بمقياس الإيمان، وتجعل من هذه الحياة الدنيا طريقًا إلى الآخرة، تلك الحياة الأبدية التى يكون فيها الجزاء الحسن للمؤمنين والعقاب الشديد للكافرين والمذنبين، ويتحقق وعد الله - تعالى - ووعيده كما قال فى القرآن الكريم: ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾[1].

وعندئذ ينادى المنادى ويقول: «يا أهل الجنة خلود بلا موت، ويا أهل النار خلود بلا موت».

وما دامت هذه الحياة الدنيا طريقًا إلى الآخرة، وما دامت الغاية من خلق الله - تعالى - للجن والإنس هى عبادته - جل وعلا - الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذى لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد، فلابد من الاهتمام الشديد بجانب الإيمان، ولتتحقق الغاية من الخلق، التى ذكرها الله - تعالى - فى كتابه الكريم: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ • مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ • إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾[2].

ومعنى هذه الآيات الكريمة: أن الله - جلت قدرته - يبين أنه - تعالى - ما خلق الجن والإنس لشئ يعود عليه - سبحانه وتعالى - بالنفع، وإنما خلقهم

(١) الآية: ٧ من سورة الشورى.

(٢) الآيات: ٥٦، ٥٧، ٦٨ من سورة الذاريات.

ليعبدوه ويعظموه ويأتمروا بأمره، وينتهوا بنهيه، وعبادتهم نفع لهم، وهو - جل شأنه - ما يريد منهم من رزق؛ لأنه غنى عن العالمين، ولا يريد منهم أن يطعموه؛ لأنه يُطعِم ولا يُطعَم فهو وحده - تعالى - المتكفل برزق عباده، وهو ذو القوة الشديد الذى لا يعجز[1].

ودور الأسرة فى غرس الإيمان فى قلوب الأطفال منذ نعومة أظفارهم يحتاج إلى هذه الأمور الآتية:

أولا: إل بناء الأسرة المسلمة التى يناط بها رعاية الطفل من الناحية الإيمانية، وذلك لتستطيع غرس الإيمان فى قلب الطفل عن طريق التقليد والتعليم والتشجيع والرقابة والتأديب المناسب فى بعض الأحيان، وقد قيل: من يك حازماً فليقس أحيانا على من يرحم.

وثانيا: إلى وجود المؤسسات التعليمية والتربوية الى تقوم هى الأخرى مع الأسرة المؤمنة فى بناء الطفل جسميًا وصحيًا وإيمانيًا وتربويًا واجتماعيًا، وأخلاقيًا ونفسيًا وفكريًا.

وثالثا: إلى وجود المؤسسات الإجتماعية والأمنية التى تساهم مساهمة فعالة فى تكوين الطفل ورعايته من الناحية الإيمانية والسلوكية والتشريعية.

ورابعا: إلى وجود وسائل الإعلام المقروءة والمسموعة والمرئية التى تساهم - أيضا - فى تكوين الطفل تكوينًا قبل أى شئ أخر.

ومما لاشك فيه أن تقديم الإيمان والاهتمام الكبير به من شأنه أن يؤدى إلى تربية الطفل تربية إيمانية سليمة، يترتب عليها إيجاد طفل مسلم مؤمن، يعرف شعائر دينه فيؤديها، ويحافظ عليها، ويتأدب بأدب الإسلام منذ طفولته، فى مأكله مشربه وملبسه، وتعليمه وتعاونه مع الآخرين، وبذلك نحصل على إنسان سوى منذ صغره، حتى إذا شب عن الطوق، وبلغ مبلغ الكبار، كان مثالاً حيًا للشاب المسلم المؤمن المحافظ على حقوق الله - تعالى - وعلى حقوق الدين والوطن، ولا يحافظ عليهما إلا الرجال المؤمنون الأقوياء، وصدق رسول الله ﷺ الذى يقول

(١) المنتخب فى تفسير القرآن الكريم بتصرف

دائمـــا أبداً - لإتبـــاعـــه: «**المؤمن القـــوى خـــيـــر وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف**»[1].

وقوة المؤمن لا تقتصر على قوة التصديق القلبى فقط، وإنما تتعداها إلى قوة العمل فى جانب العبادات، وفى جانب المعاملات، وفى جانب الأخلاق والسلوك، وفى كل تصرف سليم مشروع فى الإسلام.

ومن أجل إيجاد هذا المؤمن القوى فقد اخترت هذا الموضوع وهو رعاية الأسرة للطفل من الناحية الإيمانية.

---

(١) صحيح مسلم المجلد الثامن ص٤٦٧ ورقمه ٤٦٦٢.

بناء الأسرة فى الإسلام

إن الأسرة هى الخلية الأولى التى يتكون منها المجتمع، ومما لاشك فيه أنه إذا صلحت الأسرة صلح المجتمع، ومن أجل الحصول على الأسرة المؤمنة المسلمة لابد من إتباع نظام الإسلام فى بناء الأسرة، حتى نحصل على أسرة مؤمنة حقًا، ولن نحصل على هذه الأسرة أبدًا إلا إذا اتبعنا منهج الإسلام فى بنائها وتكوينها، وذلك على النحو التالى:

١- اختيار الزوجة المتدينة:

الزواج المشروع هو الطريق الصحيح الذى سنه رسول الله ﷺ لأمته، وأغراض الناس من الزواج تختلف، ورسول السلام محمد بن عبد الله ﷺ يقول فى ذلك: «**تنكح المرأة لأربع: لمالها، وحسبها، ولجمالها، ولدينها، فاظفر بذات الدين تربت يداك**»[١].

ومعنى تربت يداك: أى أفتقرت إن لم تفعل، واستغنيت إن فعلت وظفرت بالزواج من المرأة المتدينة.

وقد أجاب الرسول ﷺ على سؤال أحد الصحابة بقوله لرسول الله: أى النساء خير يا رسول الله: فقال له «**التى تسره إذا نظر إليها، وتطيعه إذا أمر، ولا تخالفه فى نفسها ولا ماله بما يكره**»[٢].

فالخير كل الخير فى الزواج بهذه المرأة التى تتصف بهذه الصفات؛ لأنها طبعت على التدين، وتربت على الإسلام، فكانت نعم الزوجة التى تسعد زوجها بحسن أخلاقها، وطاعتها لزوجها، وفعل ما يرضيه ويسعده، وتربية أولاده تربية إسلامية صحيحة.

---

(١) نيل الأوطاد ج٦ ص١٠٤.

(٢) رواه أحمد ج٢ ص٢٥١.

ومن أجل الحرص على الزواج بالمرأة المتدينة يقول رسول الله ﷺ لإتباعه الذين يريدون الزواج، ويرغبون فى بناء الأسرة المسلمة: «**لا تتزوجوا النساء لحسنهن فعسى حسنهن أن يرديهن، ولا تتزوجوهن لأموالهن فعسى أموالهن أن تطغيهن، ولكن تزوجوهم على الدين، ولأمة خرقاء سوداء ذات دين أفضل**»[1].

ومن هنا فينبغى على الشاب المسلم الذى يريد الزواج، أن يكون هدفه هو البحث عن المرأة المتدينة، وليس بلازم أن تكون خرقاء سوداء، فقد يكون مع التدين بقية الأوصاف التى يبحث الرجال عنها فيمن يريدون الاقتران بها، وبناء عش الزوجية السعيدة، وتلك قمة مطالب الرجال فى زوجة المستقبل شريكة الحياة.

٢- اختيار الزوج المتدين:

والخطبة فى الإسلام ليست مقصورة على خطبة الرجال للمرأة التى يريد الزواج بها، وإنما أجاز الإسلام للمرأة أن تختار، أو يختار لها وليها الرجل المتدين، وقد حث الرسول ﷺ على هذا الاختيار، وذلك بقوله لأولياء أمور البنات: «**إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فأنكحوه، إلا تفعلوا تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير، قالوا: وإن كان فيه؟**» أى فقر وقلة مثلاً؟ قال: «**إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فأنكحوه ثلاث مرات**».

ومن هذا الحديث الشريف نعرف الوصف الحقيقى للزوج المثالى الذى نختاره لبناتنا، ونساعده على بناء أسرة مؤمنة؛ لأنه يعرف الحق والواجب، ويقدر المسئولية، ويراعى الله فى أقواله وأفعاله، ويعمل على إسعاد زوجته وأولاده وأمه وأبيه وبقية أسرته، ويكون - بحق - عنصرًا من عناصر البناء السليم للمجتمع الإسلامى المؤمن الكبير.

٣- الزواج المشروع طريق التكاثر:

وقد يأتى الولد عن طريق الزواج المشروع وهو الذى ارتضاه الله - تعالى - لعباده المؤمنين، وحث عليه، وأمر الناس به، وقد يأتى الولد عن طريق الزنا، وهو الذى حرمه الله - تعالى - على عباده ونهاهم عنه، وعاقب على فعله، ونصوص

(١) سنن ابن ماجة ج١ ورقم الحديث ١٩٥٨.

القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة كثيرة فى هذين الأمرين.

وعلى سبيل المثال اذكر بعض هذه النصوص:

فبالنسبة للحث على الزواج: يقول الله - تعالى - فى كتابه الكريم: ﴿**فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلاَثَ وَرُبَاعَ**﴾[1].

وقال الله - تعالى -: ﴿**وَأَنْكِحُوا الأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ**﴾[2].

وقال رسول الله ﷺ لشباب الإسلام يحثهم على الزواج فيقول: «**يا معشر الشباب من إستطاع منكم الباءة فليتزوج؛ فأنه أغض للبصر، وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء**»[3].

وبالنسبة للنهى عن الزنا: يقول الله - تعالى - فى القرآن الكريم: ﴿**وَلاَ تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً**﴾[4].

ويقول - جل شأنه -: ﴿**الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلاَ تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ • الزَّانِي لاَ يَنْكِحُ إِلاَّ زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لاَ يَنْكِحُهَا إِلاَّ زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ**﴾[5].

وبالمقارنة بين شرعية الزواج وجعله نعمة كبرى، وهو تلبية لنداء الفطرة، وتوسعة من الله على من يريد العفاف، وبين تحريم الزنا وجعله فاحشه كبرى وسبيلا سيئا، وأمرًا محرمًا يتبين لنا حكمة المشروعية، فالزواج سبيل كريم للمحافظة عل بقاء النوع الإنسانى وتكثيره كما أراد الله - تعالى - لتتحقق الغاية من الخلق؛ وهى عبادة الخالق - جلا وعلا - وتعمير الأرض، وقد جاء فى القرآن الكريم على لسان صالح عليه السلام قوله - تعالى -: ﴿**قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ**﴾[6].

---

(١) الآية: ٣ من سورة النساء.
(٢) الآية: ٣٢ من سورة النساء.
(٣) سبيل السلام ج٣ ص١١٤.
(٤) الآية: ٣٢ من سورة الإسراء.
(٥) الآيتان: ٢، ٣ من سورة النور
(٦) الآية: ٦١ من سورة هود.

والزنا اعتداء على الأعراض التى حرم الله - تعالى - الاعتداء عليها فى كل الأديان السماوية منذ نزول أبونا آدم إلى الأرض إلى أن ختم اله الرسالات السماوية برسالة محمد ﷺ والزنا سبيل سيئ يؤدى إلى اختلاط الأنساب، وتكثير النوع البشرى بطريقة محرمة، ومن هنا كان العقاب على اقترافه شديداً، وهو الجلد مائة جلدة للبكر، والرجم بالحجارة حتى الموت للمحصن.

٤- الزواج علاج نفسى للزوجين:

لقد جعل الله - تعالى - الزواج المشروع آية من آياته، ونعمة كبرى من نعمه التى لا تعد ولا تحصى، وقال فيه: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[1].

ومعنى هذه الآية الكريمة: أن الله - تعالى - بين لنا الأدلة على كمال قدرته وواسع رحمته، أن خلق لنا نحن الرجال من نفس جنسنا لتكون الألفة بيننا وبينهم، وتحصل المودة والتراحم بين الجنسين، ولاشك أن فى ذلك دلائل لقوم يتفكرون فى صنع الله تعالى[2].

والزواج نعمة وعلاج، وتكتمل النعمة ويتم العلاج بمجىء البنين والبنات والأحفاد عن طريق هذه النعمة، وتحصل السعادة والطمأنينة بين الزوجين، ويفرحان ويفرح الأهل بميلاد الأولاد، ورسول السلام محمد بن عبد الله يشرع لنا شكر الله على هذه النعمة، فيسن لنا العقيقة ويدعى لها الأصدقاء والفقراء على السواء.

والله - تعالى - يقول فى ذلك: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾[3].

فهل هناك علاج نفسى مؤكد أفضل من هذا العلاج؟ وهل هناك سبيل إلى تنظيم أفضل من هذا التنظيم الإلاهى العظيم؟ كلا وألف كلا.

٥- النسب نعمة كبرى:

ومادام الزواج نعمة كبرى من نعم الله - على عباده المؤمنين، وهو سبيل إلى إنجاب الولد بإذن الله - تعالى - ومشيئته، فالولد نعمة كبرى تضاف إلى نعمة

(١) الآية: ٢١ من سورة الروم.
(٢) المنتخب فى تفسير القرآن الكريم.
(٣) الآية: ٧١ من سورة النحل.

الزواج، وفى ذلك يقو الله - تعالى -: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾[1].

ونحن إذا تأملنا فى هذه الآية الكريمة، فإننا نجد النسب والمصاهرة نعمة من نعم الله - تعالى - على عباده، أمتن الله عليهم بها، وجعلها من مظاهر قدرته، وذلك بعد أن عدد كثيرًا من نعمه فى الآيات السابقة على هذه الآية، ليتعظ بها الإنسان، ويحافظ على نعم الله العديدة التى أنعم الله - تعالى - بها على عباده.

ونعمة النسب لها قيمتها ولها خطرها، ومن هنا نجد إن الله - سبحانه وتعالى - أمر المؤمنين بالمحافظة عليها، وعدم الكفران بها فقال: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ • ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ﴾[2].

وفى هاتين الآيتين يحرم الله - تعالى - التبنى، وذلك محافظة على النسب الحقيقى الذى نتج عن نعمة الزواج المشروع فى الإسلام، وبذلك يتحقق بناء الأسرة فى الإسلام، ويتكون المجتمع الإسلامى السليم من هذه الأسر التى تأسست على هدى الإسلام، ونتج عنها الطفل فرحه الوالدين، وفرحة الأهل، وأمل المستقبل وحامى حمى الدين والوطن حينما يدعو الداعى إلى الجهاد المشروع لإعلاء راية الإسلام حفاقة عالية تعلن الأمن والعدل والسلام.

---

(١) الآية: ٥٤ من سورة الفرقان.

(٢) الآيتان: ٤، ٥ من سورة الأحزاب

دور الأسرة فى غرس الإيمان فى قلب الطفل

القدوة الحسنة:

إن القدوة للمحيطين بالطفل أمر معلوم وواقع مشاهد، نراه كل يوم فى محيط العائلة، فحينما يقوم رب البيت بالصلاة فى بيته، فإننا نجد الطفل الصغير الذى لا يبلغ بعد يقوم بالقيام والقعود والنوم على سجادة الصلاة مع من يصلى فى البيت، وذلك من باب التقليد لمن يصلى، ونرى ذلك - أيضًا - فى مد يد الصغير للسلام على غيره كما يفعل الكبار، ومن هنا أمر الله - تعالى - الرجال بالقدوة الحسنة، وقال فى ذلك: ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾[1].

وهذه دعوة من الله - تعالى - لعباده المؤمنين بالقدوة الحسنة لرسول الله ﷺ ولاشك أن المؤمنين هم أولى الناس بهذه القدوة؛ لأنهم يرجون رحمة الله، ونعيم اليوم الآخر، ويذكرون الله كثيرًا عند الخوف والرجاء، وعند الشدة والرخاء.

وقال - تعالى -: ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾[2].

وقال - تعالى - فى نفس السورة بعد هذه الآية السابقة:﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾[3].

---

(١) الآية: ٢١ من سورة الأحزاب.
(٢) الآية: ٤ من سورة الممتحنة.
(٣) الآية ٦ من سورة الممتحنة.

وفى هاتين الآيتين الكريمتين يدعو الله - تعالى - المؤمنين إلى الإقتداء بإبراهيم عليه السلام والذين آمنوا معه، وذلك فى قولهم إنا بريئون منكم ومن الأصنام التى تعبدونها من دون الله، ونعلن عداوتنا وبغضنا لكم، ولن تزول هذه العداوة حتى تؤمنوا بالله وحده.

وقد أكد الله - تعالى - للمؤمنين هذه الدعوة إلى الاقتداء بإبراهيم عليه السلام والذين معه فى الآية الثانية، وبين أن هذه القدوة لمن كان يرجو لقاء الله واليوم الآخر، وأن من يعرض عن هذا الاقتداء فقد ظلم نفسه، فإن الله - تعالى - هو الغنى عن سواه، المستحق للحمد من كل ما عداه[1].

وإذا كانت القدوة الحسنة قد أمر الله بها الكبار، فمن فضل الله - تعالى - أن جعلها أمرًا فطريًا فى الأطفال تدعوهم منذ نعومة أظافرهم وهم لازالوا فى طور الطفولة الأول إلى تقليد المحيطين بهم، ومن هنا واجب الوالدين أن يكونا قدوة طيبة لأولادهم؛ لأن الله - تعالى - خلقهم على الفطرة السليمة التى فطر الله الناس عليها، ولذلك قال رسول الله ﷺ: «**ما من مولود إلا يولد على الفطرة**» ثم يقول إقرءوا: ﴿**فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ**﴾[2].

وقد أجمع من يعتد برأيه من علماد المسلمين على أن من مات من أطفال المسلمين فهو من أهل الجنة؛ لأنه ليس مكلفًا، وأما من مات من أطفال المشركين ففيهم ثلاث مذاهب:

قال الأكثرون: هم فى النار تبعًا لآبائهم، وتوقفت طائفة فيهم.

والثالث: وهو الصحيح الذى ذهب إليه المحققون أنهم من أجل الجنة.

وقد استدل أصحاب هذا المذهب بعدة أدلة منها:

حديث إبراهيم الخليل عليه السلام حين رآه النبى ﷺ فى الجنة وحوله أولاد الناس، قالوا: يا رسول الله وأولاد المشركين؟ قال: «**وأولاد المشركين**»[3].

---

(١) مختصر ابن كثير - ص ٦٢٠، ٦٢١.

(٢) الآية: ٣٠ من سورة الروم.

(٣) رواه البخارى فى صحيحه.

ومنها: قوله - تعالى - ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾[1].

ولا يتوجه على المولود التكليف، ويلزمه قول الرسول حتى يبلغ، وهذا متفق عليه، والله أعلم[2].

مسئولية الوالدين عن الطفل:

لقد فرض الله على الوالدين رعاية الأبناء والمحافظة عليهم وتعليمهم وتأديبهم، فأوجب على الأب أن ينفق على ولده ويشرف على تربيته، وتكون الولاية له عليه حتى يكبر ويبلغ مبلغ الرجال فيكون ولى نفسه، وأوجب على الأم أن تقوم بإرضاعه وحضانته وتغذيته وتمريضه والإشراف عليه داخل البيت، على كل واحد منهما حقوق لطفلهما حتى يشب ويكبر يصير إنسانًا سويًا، وهذه بعض أوامر الرسول ﷺ للآباء بالنسبة لأولادهم:

أ - الأمر بالصلاة:

إن من أوجب الواجبات على الوالدين غرس الإيمان فى قلب الطفل منذ صغره، والرسول ﷺ يقول: «**علموا أولادكم الصلاة لسبع، وأضربوهم عليها لعشر، وفرقوا بينهم فى المضاجع**»[3].

ومما لاشك فيه أن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، كما قال الله - تعالى - لنا ذلك فى القرآن الكريم مخاطبًا رسوله ﷺ: ﴿**اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلاَةَ إِنَّ الصَّلاَةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ**﴾[4].

ومعنى هذه الآية الكريمة: أن الله - تعالى - يأمر رسوله ﷺ بقراءة القرآن وعدم الالتفات إلى الكفار، وأداء الصلاة على وجهها؛ لأن الصلاة مع الإخلاص فيها من شأنها أن تصرف الذى يقيمها عن الذنوب الكبيرة وكل ما ينكره الشرع، ومما لاشك فيه أن تقوى الله ومراقبته فى الصلاة وفى غيرها له أكبر الأثر وأعظم الثواب عند الله - تعالى - الذى يعلم كل ما يفعله الإنسان من الخير أو الشر، ويجازى عليه فى الآخرة[5].

---

(١) الآية: ١٥ من سورة الإسراء.

(٢) صحيح مسلم - المجلد ٨ - ص ٢٦٤.

(٣) الإلمام بأحاديث الأحكام - ص ٣٠.

(٤) الآية: ٤٥ من سورة العنكبوت.

(٥) المنتخب فى تفسير القرآن الكريم بتصرف.

ومع أن الصلاة لا تجب شرعًا على الصبى؛ لأنه غير مكلف، والتكليف الشرعى إنما يبدأ من البلوغ وكونه عاقلاً ويستمر حتى الوفاة، ولكن النبى ﷺ أراد بهذا الأمر تعليم الأطفال شعيرة الصلاة؛ لأنهم فى مرحلة التكوين البدنى والنفسى والدينى، والطفل فى مرحلة الطفولة محتاج إلى التدريب والتعليم، وهو صالح لتقبل ذلك؛ لأنهم أشبه بغصن الشجرة الصغيرة إذا تعهده الإنسان بالعناية والرعاية والإستقامة صار معتدلاً وبقى على هذا الاعتدال، وإذا ترك بدون العناية به واستقامته صار معوجًا، واستمر على اعوجاجه.

وما الأمر بالصلاة من الرسول ﷺ لأولياء الأطفال، إلا من أجل غرس الإيمان فى قلوب الأطفال، وذلك ليتدربوا عيها، ويتعودوا على فعلها، ويعرفوا كل شىء عنها حتى إذا وصلوا إلى مرحلة التكليف أدوها صحيحة كاملة.

والصلاة كلها ذكر وتهليل وتكبير لله - عز وجل - فبدؤها التكبير، وهو الركن الثانى بعد النية، ويليه قراءة الفاتحة وهى: ﴿**بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ • الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ • الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ • مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ • إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ • اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ • صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ**﴾[1].

ولو نظرنا فى آيات أم الكتاب ودققنا النظر فإننا نجدها - حقًا - تغرس الإيمان فى القلوب، وما أحوج الأطفال إلى غرس الإيمان فى قلوبهم منذ نعومة أظافرهم، والصلاة كفيلة بهذا الغرس المبكر؛ لأنها من أولها إلى آخرها تقديس وتعظيم وإقرار بوحدانية الله وأحقيته بالعبادة وأن محمدًا رسول الله الذى أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله.

ونظرًا لمنزلة الصلاة بالنسبة للإيمان فلم يشرع الله لرسوله فى مكة التى دعا فيها إلى الإسلام ومكث بها ثلاثة عشر عامًا إلا الصلاة وتحريم الذبح لغير الله، وهما تدريب عملى على العقيدة الصحيحة، وتأكيد على التصديق القلبى بلا إله إلا الله محمد رسول الله.

ولذلك قال رسول ﷺ: «**واضربوهم عليها لعشر**»، والمراد بالضرب: التخويف والضرب اليسير وليس الإيذاء الشديد؛ لأن الصلاة لا تجب على الطفل حتى يبلغ،

(١) سورة الفاتحة.

ومن بلغ سن العاشرة لا يكون بالغًا، فلا يستحق عقابًا.

والتفرقة بين الأولاد فى المضاجع من الأمور التى أمر بها رسول الله ﷺ أولياء أمور الأطفال، وهى - بلاشك - فى غاية الأهمية؛ لأن الطباع مختلفة والأخلاق متفاوتة، ومن الممكن أن يقلد الأطفال بعضهم، وتحصل العدوى من التصرفات السيئة، ومن أجل المحافظة على سلامة الأطفال، أوجب الرسول ﷺ أن يفرقوا بينهم فى المضاجع، ولا يقتصر واجب الآباء على هذه التفرقة وإنما يجب عليهم أن يلاحظوا ويراقبوا تصرفات أولادهم، فإن كانت حسنة كافئوهم، وإن كانت سيئة قوموهم بمجرد اعوجاجهم حتى لا يستفحل انحرافهم.

ب- الأمر بالتسمية فى أول الأكل والحمد فى آخره:

ومن الأمور التى يجب على الآباء تدريب الأبناء عليها، التسمية فى أول الأكل وحمد الله - تعالى - فى آخره، وذلك عملاً بحديث الرسول ﷺ الذى رواه عمر بن أبى سلمة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**سم الله وكل بيمينك، وكل مما يليك**»(١).

وعن عائشة - رضى الله عنها - قالت: قال رسول الله ﷺ: «**إذا أكل أحدكم فليذكر اسم الله - تعالى - ، فإن نسى أن يذكر اسم الله - تعالى - فى أوله، فليقل: بسم الله أوله وآخره**»(٢).

وعن أبى أمامة رضي الله عنه أن النبى ﷺ كان إذا رفع مائدته قال: «**الحمد لله كثيرًا طيبًا مباركًا فيه، غير مكفى ولا مودع، ولا مستغنى عنه ربنا**»(٣).

وعن معاذ بن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**من أكل طعامًا فقال: الحمد لله الذى أطعمنى هذا ورزقنيه من غير حول منى ولا قوة، غفر له ما تقدم له من ذنبه**»(٤).

ومن هذه الأحاديث النبوية الشريفة يعلمنا رسول الله ﷺ عن طريق أمره وعن

---

(١) رواه البخارى ورقمه ٣٧٣٥.
(٢) رواه الترمزى وأبو داود وقال حسن صحيح.
(٣) رواه البخارى ورقمه ٨٥٤٥.
(٤) رواه أبو داود ورقمه ٣٢٠٤.

طريق الأسوة به أن نسمى الله فى أول الأكل، وأن نحمده - تعالى - فى آخره.

ومما لاشك فيه أن بدأ الأكل بقولنا: بسم الله، وختامه بقولنا: الحمد لله، هو تثبيت للإيمان بالله - جل جلاله - ومن هنا وجب على الآباء أن يدربوا أطفالهم على ذلك منذ صغرهم حتى يشبوا على أن الله - تعالى - هو المنعم، وهو الرازق، وهو المستحق للشكر على نعمة الكثيرة التى لا تعد ولا تحصى.

ج - الأمر بطاعة الله وإتباع أوامره والبعد عن نواهيه:

وهذه نصيحة رسول الله ﷺ لشاب من شباب الإسلام، وهو عبد الله بن عباس - رضى الله عنهما - قال: كنت خلف النبى ﷺ يومًا فقال: «**يا غلام إنى أعلمك كلمات: أحفظ الله يحفظك، أحفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشىء لم ينفعوك إلا بشىء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشىء لم يضروك إلا بشىء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف**»[1].

وفى رواية غير الترمزى زيادة، وهى: «**أحفظ الله تجده أمامك، وما أصابك لم يكن ليخطئك**» وفى آخره: «**وأعلم أن النصر مع الصبر، وأن الفرج مفتاح الكرب، وان مع العسر يسرا**»[2].

ومعنى احفظ الله: أى بحفظ دينه وأمره، والمراد من هذه العبارة: كن مطيعًا لربك، مؤتمرًا بأوامره، منتهيًا عن نواهيه، وتيقن أنك إن فعلت ذلك كافأك الله - تعالى - بحفظ نفسك، وحفظ دنياك؛ لأن الجزاء من جنس العمل، فمن عمل صالحًا فلنفسه، ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد.

والنبى ﷺ يدرب ابن عباس - رضى الله عنهما - على الإيمان الكامل، واليقين الذى لا ريب فيه، وذلك بغرس التصديق القلبى فى هذا الغلام، وتعليمه أن الله - تعالى - هو الصمد الذى لا يحتاج إلى أحد، ويحتاج إليه كل ما عداه، فإذا سألت فاسأل الله الذى يجيب المضطر إذا دعاه، وإذا طلبت الاستعانة فاستعن بالله

(١) رواه الترمزى وقال: حديث حسن صحيح، الأذكار المنتخبة من كلام سيد الأبرار للإمام النووى ص ٧٦٣.
(٢) نفس المصدر السابق.

المعين بقدرته من لجأ إليه، وتذكر- دائمًا وأبدًا فى كل وقت وحين - أن النافع هو الله ، وأن الضار هو الله، وأن الأمر كله بيده، وليس للأمة كلها نفع أو ضرر للإنسان إلا بإذن الله.

ومعنى تجده تجاهك؛ أى تجده أمامك كما فى الرواية الثانية، والمراد من ذلك: أنك تجده معك بالحفظ والإحاطة والتأييد حيثما كنت فتأنس به وتستغنى به عن خلقه، ولاشك أن هذا تأكيدًا لما قبله.

والرسول ﷺ بهذا يبين لأمته أن الأطفال أمانة فى يد الكبار، والواجب على الكبار تعليم الصغار وتدريبهم على الإيمان بالله وبمحمد رسول الله، وذلك عن طريق الصلاة فى صغرهم قبل بلوغهم، وعن طريق الأكل والشرب الذى يستمر ويتعدد فى كل يوم وليلة، وعن طريق سؤال الله ودعائه والتوكل عليه؛ لأنه هو وحده - سبحانه وتعالى - القادر على كل شىء، وهو الضار والنافع، والأمة كلها لا تستطيع نفع الإنسان ولا ضرره، إلا أن يشاء الله، ولاشك أن هذا يربى الطفل على العمل النافع المفيد ، وعلى التسليم والرضا بقضاء الله وقدره منذ صغره، فإذا بلغ مبلغ الرجال كان رجلاً مؤمنًا قوى الإيمان يدافع عن دينه وعن وطنه، ويكون من الذين قال الله - تعالى - فيهم: ﴿**وَالْعَصْرِ • إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ • إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ**﴾[1].

(١) سورة العصر.

دور المؤسسات فى تكملة دور الأسرة

وإذا كان للأسرة دور فى رعاية الطفل من الناحية الإيمانية، فلا يمكن إنكار دور المؤسسات فى إكمال دور الأسرة فى هذه الناحية الهامة التى ينبغى على الجميع المساهمة الفعالة فى غرس الإيمان بكل السبل فى قلوب الأطفال، ومما لاشك فيه أن الإيمان إذا استقر فى النفوس، أدى إلى التخلق بالأخلاق الحسنة، والتعامل بكل معاملة مع النس، التى شرعها الله - تعالى - لعباده المؤمنين، فينشأ الطفل محبًا للصدق والأمانة والتعاون على البر والتقوى، والتعلم لم ينفعه فى دينه ودنياه، وتقوية بدنه بالرياضة وتعلم الرماية، وتقوية روحه بقراءة القرآن الكريم، والصلاة والصوم، والصدقة، والحج إذا تيسر له مع والديه، وهذه بعض الكلمات عن دور المؤسسات فى هذا الشأن.

١- دور المسجد:

إن للمسجد دور هام فى بناء الطفل من الناحية الإيمانية، فقد أمر الرسول ﷺ الآباء والأمهات تعليم الأبناء الصلاة، إذا بلغوا سبع سنين من العمر، ومن الممكن أن تكون الصلاة فى البيت أو فى المسجد، وواجب الآباء أن يصطحبوا أبناءهم معهم إلى المسجد، فيعرفوا صلاة الجماعة، ويستمعوا إلى خطبة الجمعة، ويجلسوا مع الكبار فى دروس الدين، كل ذلك من شأنه أن ينمى فيهم الدين، ويغرس فى قلوبهم الإيمان الصحيح منذ صغرهم.

وبذلك يكون للمسجد دور كبير فى إكمال ما بدأت الأسرة به فى هذا الجانب.

وينبغى على رجال الدين الذين أن يقيمون بإلقاء الدروس الدينية فى المساجد أن يتبسطوا فى لغتهم، وأن يراعوا اختلاف ثقافة المصلين، وليتم يخصصون

دروسًا للأطفال وحدهم فى أوقات تناسبهم فى العمر وفى الوقت، كما يخصصون دروسًا خاصة بالنساء والفتيات وحدهن، ويراعوا الله - تعالى - فى خطابهم للأطفال وللنساء والرجال.

٢- دور المدارس:

ومن واجب وزارة التربية والتعليم أن تنشئ فى كل مدرسة من مدارس الأطفال - على الخصوص - مسجدًا صغيرًا يتدرب الأطفال فيه عمليا على الوضوء والصلاة، تلك الفريضة العملية التى تثبت الإيمان تثبيتًا عمليًا فى قلوب الأطفال، والرسول ﷺ يقول فى فضل الصلاة فى وقتها، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: سألت النبى ﷺ «**أى العمل أحب إلى الله قال: الصلاة على وقتها، قال: ثم أى: قال: بر الوالدين، قال: ثم أى؟ قال: الجهاد فى سبيل الله، قال: حدثن بهن رسول الله ﷺ ولو استزدته لزادنى**»(١).

فإذا كانت الصلاة عماد الدين من أقامها فقد أقام الدين، ومن هدمها فقد هدم الدين، وإذا كانت الصلاة أحب الأعمال إلى الله فواجب المسلمين جميعًا تربية النشأ على الصلاة منذ صغرهم؛ ليتعودوا عليها، وتكون - عندهم - كل يوم كالأكل والشرب الذى لايستغنى عنهما الطفل.

وإذا كانت الرياضة البدنية تهتم الوزارة بها وتقيم لها الملاعب وتشترى لها الملابس والأدوات، ويعين لها المدرسين المتخصصين، فلتهتم بإقامة مسجد صغير - ولو حجرة - فى كل مدرسة لتدريب الأطفال على الصلاة التى هى خشوع وخضوع وتذلل لله رب العالمين.

٣- دور الإذاعة والتلفاز:

والإذاعة والتلفاز لهما دور كبير فى رعاية الأطفال من النواحى العديدة، صحيًا وبدنيًا وتعليميًا وثقافيًا، وواجب الدولة أن تراقب ما يذاع وما يبث وما يرى، وخصوصًا بعد فتح السماء لاستقبال ما يرسل على القنوات الفضائية الأجنبية التى تبث السم فى العسل، وتعمل جاهدة على إفساد عقول شباب المسلمين،

(١) مختصر صحيح البخارى ج١ ورقمه ٩٢٣.

وأبعادهم شيئًا فشيئًا عن عقيدة الإسلام الذى ختم الله - تعالى - بها رسالات السماء.

وواجب المسئولين عن هذه المؤسسات أن يكون لجانب الإيمان نصيب كبير فى برامج الأطفال؛ وذلك لإكمال ما بدأت الأسرة به، وتأكده مرات ومرات حتى يترسخ الإيمان فى قلوب الصغار، وحتى يتعود الأطفال على الصدق والأمانة وحب الدين، وحب الوالدين، وحب الإخوة، وحب الأصدقاء، وحب الخير للناس، وحب التعاون على فعل الخيرات، وحينئذ تكون التربية الصحيحة، وينشأ الأولاد نشأة دينية سليمة، ويكونوا رجال المستقبل الذين ينفعون أنفسهم وأهليهم، ودينهم ووطنهم.

والله - تعالى - أسأل أن يوفق ولاة الأمور إلى تربية الأطفال تربية دينية صحيحة، حتى يسعدوا بهم فى دنياهم، ويرضى الله عنهم ويوفقهم - دائمًا وابدًا- إلى الصواب.

٤- دور المؤسسات الرياضية:

لقد حدث رسول الله ﷺ على الرياضة، وذلك بعمله مع السيدة عائشة - رضى الله عنها - فقد روى أنه سابقها فسبقته أول مرة؛ لأنها كانت صغيرة، ولم يكن جسمها كبيرًا، وسابقها مرة أخرى فسبقها؛ لأنها كبرت وحملت من اللحم الشىء الكثير، فقال لها الرسول ﷺ: «هذه بتلك» أى أنت سبقتنى فى المرة الأولى، وأنا سبقتك فى المرة الثانية.

وكان النبى ﷺ يشجع على الرياضة، ويحث عليها؛ لأنها تقوى الجسم، وتقوى العقل، وقالوا: العقل السليم فى الجسم السليم.

وقد وقفت خديجة - رضى الله عنها - مع رسول الله ﷺ وهى زوجته وأم أولاده، بمالها، وشرفها، ونسبها، وكانت متزوجة قبله برجلين، وفارق السن لم يمنعها من أن تخطبه لنفسها، وأخذته لورقة بن نوفل ابن عمها لتقول له: أسمع من ابن أخيك ما يقول: فقص النبى ﷺ ما رآه فأخذ ورقة بيده وقبله وقال له: هذا الناموس الكبير الذى أنزل على موسى، ليتنى أكون حيًا إذ يخرجك قومك، قال: أو

مـخـرجى هم قـال ورقـة لـه: لم يأت رجل قط بمثل مـا جـئت به إلا عـودى، وإن يدركنى يومك أنصرك نصرا مؤزرا، وكان ورقة أول الرجال الذين آمنوا بمحمد.

وهذا شأن الزوجات المؤمنات، أن تقف مع زوجها فى كل مناسبة سواء كانت حسنة أم سيئة[1].

وقال النبى ﷺ: «الخيل معقود فى نواصيها الخير إلى يوم القيامة»[2].

ومن أجل نشر الإسلام، يريد الرسول ﷺ الرجال الأقوياء الذين يجيدون الحرب فأجسامهم سليمة، ورميهم صائب، وهم يركبون الفرس بمهارة، والحروب فى الإسلام تتطلب هذه الأشياء، وأن تطورت الحروب الآن فهو تطور لا بأس به إن كان يساعد على الانتصار فى الحرب المشروعة فى الإسلام، الذى لا يقتل فيها من لا يحارب من الشيخ الهرم، والمرأة، والصبيان، والزروع التى ليس لها صلة بالحرب فكل ذلك منهى عنه فى الإسلام.

وبالنسبة للمؤسسات الرياضية فنبدأ أولاً بالمدارس والجامعات.

٥- دور المدارس والجامعات:

كانت الدولة توفر الملاعب فى المدارس والجامعات، وهذا أمر لا يمكن الإستهانة به الآن، فقد خلت كثير من المدارس والجامعات من الأماكن التى تصلح للرياضة، وهذا شىء مؤسف، ولاشك أن الجسم السليم يؤدى إلى العقل السليم، والعقل السليم هو الذى يقوم بالصناعات المختلفة والإختراعات المتعددة، فالواجب على الوزارة أن تقوم بحصة النشاط كالسابق، وتهتم بها أيما اهتمام.

والواجب على وزارة التعليم العالى أن تهتم بالرياضة كذلك؛ لأنها كما قلت سابقًا تقوى الجسم والعقل والروح.

٦- دور النوادى الرياضية:

وقد كثرت النوادى الرياضية فى كل البلاد، وهى تقوم بأخذ الأولاد الصغار، وتعلمهم الرياضات المختلفة لتخلق منهم رجالاً أقوياء، وتختار منهم ما يناسبها من

(١) سيرة ابن هشام ص ٢٣٨ ج١.
(٢) انظر عيون الأخبار ج١ ص١٥٣.

الفرق المختلفة التى تساعدهم فى المسابقات المختلفة محليا ودوليا، وهذا أمر محمود، وعمل كريم، يحث الإسلام عليه وينادى به.

ولاشك أن الرياضة أمر لابد منه، فهى التى تربى الأجسام وتنمى العقول، حتى إذا دعا الداعى إلى الجهاد وجدنا من يجاهد لإعلاء شأن الوطن، والدفاع عنه، وعن الإنسان والعرض والدين وبذلك يحس الإنسان بالأمن والأمان، ويعيش الناس فى سعادة ورخاء.

الفصل السابع

فى

أمن حواشى الأسرة

مقدمة:

لقد اخترت أن تكون هذه المقدمة فى جانب الإيمان؛ لأن الإنسان المؤمن بالله ربا، وبالإسلام دينا، وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً، يلتزم بأوامر ربه فيؤديها كما طلبها - الله - فى كتابه الكريم، وفى سنه الرسول الأمين، ويلتزم - أيضا - بالنواهى التى نهاه الله - تعالى - عنها، فى آيات القرآن الكريم، وفى أحاديث المصطفى ﷺ فيجتنبها ويبتعد عنها حتى يتحقق إيمانه، ويكون مؤمناً كامل الإيمان كما يريد الله ورسوله.

ومما لا شك فيه أن المؤمن الكامل يكون على العقيدة السليمة الصحيحة، فيوحد الله، ويتوكل عليه، ويستعين به، ويخضع ويستسلم له - جلا وعلا - ويتخلق بخلق الإسلام، ذلك الدين القيم.

والمراد بحواشى الأسرة: بقية العائلة ما عدا الأصول والفروع، وتتكون العائلة من الوالدين والأبناء وهم الأخوة، والبنات وهم الأخوات، والإسلام الذى ختم الله - تعالى - به الأديان لم يترك لنا شيئاً دون أن يبينه لنا، سواء كان خاصاً بالأصول أو الفروع أو بالحواشى، وقد ضرب الله - تعالى - لنا الأمثال فى القرآن الكريم؛ لتأخذ منها العبرة، ونعمل جاهدين على التخلق بأخلاق القرآن، كما روى عن النبى ﷺ: «أنه كان خلقه القرآن» ومعنى هذا: أنه ﷺ كان يتحلى بآداب القرآن، وينفذ تعليم الله، فيفعل ما أمره الله بفعله، وينتهى كما نهاه الله - تعالى - عنه.

ونحن أتباع النبى الأمى، محمد ﷺ يجب علينا أن نتخلق بأخلاق القرآن، ونسترشد بسنة النبى ﷺ فى المحافظة على أمن العائلة، وذلك بالنسبة لأصولها، أو فروعها، أو حواشيها، وإذا استطعنا إيجاد هذه العائلة المؤمنة تحقق بمشيئة الله وجود المجتمع المؤمن، الذى يحافظ على دينه، ويحافظ على وطنه، وينشر الأمن والسلام فى كل الدنيا، وتحقق القيم الإسلامية بين أفراد العائلة أولا، ثم بين أفراد المجتمع ثانياً، وهذه بعض المبادئ الإنسانية الراقية التى نادى بها الإسلام أبينها فيما يلى:-

ختم الله - تعالى - به شرائع السماء الذى أرسل الله بها رسله إلى خلقه، منذ نزل سيدنا آدم - عليه السلام - إلى أن ختم الله الرسالات السماوية برسالة محمد ﷺ وجعلها مسك الختام، وقال عنها فى كتابه الكريم: ﴿**هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ**﴾[1]

وقد وردت هذه الآية الكريمة بعد أن ذكر الله - تعالى - انحراف اليهود والنصارى عن العقيدة الصحيحة التى أرسل الله - تعالى - بها موسى وعيسى - عليهما السلام - وقال فى ذلك: ﴿**وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (٣٠) اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ بْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٣١) يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٣٢) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ**﴾[2].

ومعنى هذه الآيات الكريمة: أن الله - تعالى - يخبر نبيه محمداً ﷺ بانحراف اليهود وتركهم دين التوحيد وقولهم: عزيز ابن الله، وانحراف النصارى عن دين الوحدانية كذلك وقالوا المسيح ابن الله، وقد ابتدعوا هذا القول من عندهم، وهم يرددونه بأفواههم.

ولم يأتهم به كتاب ولا رسول، وليس عليه حجة ولا برهان، وهم بهذا القول

---

(١) الآية: ٣٣ من سورة التوبة.

(٢) الآيات: ٣٠، ٣١، ٣٢ من سورة التوبة.

يشابهون قول المشركين قبلهم، لعن الله هؤلاء الكفار وأهلكهم، عجباً لهم كيف يضلون عن الحق وهو ظاهر، ويعدلون إلى الباطل، ومن باطلهم أنهم اتخذوا رجال دينهم أرباباً من دون الله، يشرعون لهم ويعتبرون كلامهم ديناً وإن كان يخالف قول رسولهم، فاتبعوهم فى باطلهم، وعبدوا المسيح ابن مريم مع الله الواحد الأحد، وقد أمرهم الله فى كتبه على لسان رسله ألا يعبدوا إلا إلاهاً واحداً؛ لأنه لا يستحق العبادة فى حكم الشرع والعقل إلا الإلاه الواحد، تنزه الله - تعالى - عن الإشراك فى العبادة والخلق والصفات - جل جلاله.

والكافرون بهذه المزاعم الباطلة يريدون أن يطفئوا نور الله وهو الإسلام، والله - تعالى - لا يريد إلا إتمام نوره، وذلك بإظهار دين الإسلام، ونصر رسوله ﷺ ولو كانوا كارهين لذلك.

وقد تكفل الله القادر بإتمام نوره وذلك بإرسال محمد ﷺ بالحجج والبينات، ودين الحق الذى هو الإسلام ليعلوا على كل الأديان السابقة عليه، وإن كره المشركون ذلك فإن الله - تعالى - يظهره رغماً عنهم[1]

وقد وصف الله - تعالى - الدين الإسلامى بالدين الحق فى عده مواضع من كتاب الله - تعالى - وبالدين القيم فى عده مواضع أخرى.

والمراد من الدين الحق: أنه ضد الباطل، والدين القيم: المستقيم الذى لا عوج فيه، ولا شك أن الدين الإسلامى هو الدين الحق الذى ارتضاه الله - تعالى - لعباده، واختتم به رسالات الأنبياء كلهم، وجعل رسوله محمداً ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين وقال فى ذلك: ﴿**مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا**﴾[2].

ولن يرضى الله من خلقه بعد بعثه محمد ﷺ أن يدينوا بدين غير دين الإسلام، وذلك أخذاً من قوله - تعالى -: ﴿**وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ**﴾[3].

---

(١) المنتخب فى تفسير القرآن الكريم بتصرف يسير ص ٢٦٣، ٢٦٤.
(٢) الآية: ٤٠ من سورة الأحزاب.
(٣) الآية: ٨٥ من سورة آل عمران.

وقد ارتضى الله - تعالى - الإسلام ديناً لعباده، وجعله تمام النعمة، وقال فى ذلك: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا﴾(١).

ومادام الدين الإسلامى هو الدين الحق، وهو الدين القيم، وهو الدين الذى ارتضاه الله - تعالى - لعباده وأتم به نعمته على خلقه، فلابد أن تكون أحكامه فى أمن العائلة هى الأحكام العادلة التى يترتب على إتباعها حصول الأمن الحقيقى ووقوعه بين الناس، وبالأخص بين أفراد العائلة، هى اللبنة فى بناء المجتمع الآمن السليم الذى يسوده الأمن والعدل والإخاء، ومهما بحثنا ودرسنا ودققنا النظر فلن نجد الأمن الحقيقى بين أفراد العائلة أولاً، وأفراد المجتمع ثانياً، وأفراد الإنسانية ثالثاً، إلا فى تعليم الإسلام، الذى لا يقبل الله من عباده بعد بعثة محمد ﷺ سواه.

١- بر الوالدين وصلة الأرحام:-

اشتمل القرآن الكريم على نصوص كثيرة تدعوا إلى بر الوالدين وصلة الأرحام، وقد جاءت السنة النبوية مؤكدة لها جاء فى القرآن الكريم، وعلى سبيل المثال لا الحصر، أعرض لبعض هذه النصوص من الكتاب والسنة، أبين فيها ما يجب للآباء والأمهات على الأبناء، ولا شك أن ذلك يدخل فى مسمى الإيمان، فالإيمان تصديق بالقلب وعمل بالجوارح تنفيذاً لأمر الله، وانتهاء عما نهى الله عنه، وهى من القرآن كالآتى:-

قال الله - تعالى -: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾(٢).

وقال - تعالى -: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾(٣).

وقال - تعالى -: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا فَلاَ تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا • وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾(٤).

---

(١) الآية: ٣ من سورة المائدة.

(٢) الآية: ٣٦ من سورة النساء.

(٣) الآية الأولى من سورة النساء.

(٤) الآيتان: ٢٣، ٢٤ من سورة الإسراء.

وقال - تعالى -: ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾[1].

وقال رسول الله ﷺ في حديث ابن مسعود - رضي الله عنه - قال: سألت النبي ﷺ أي العمل أحب إلى الله تعالى؟ قال: «**الصلاة على أوقاتها**»: قلت: ثم أي؟ قال: «بر الوالدين» قلت: ثم أي؟ قال: «**الجهاد في سبيل الله**»[2].

وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله من أحق الناس بحسن الصحبة؟ قال: «**أمك**» قال: ثم من؟ قال: «**أمك**» قال: ثم من؟ قال: «**أمك**» قال ثم من؟ قال: «**أبوك**»[3].

وعن أنس - رضي الله عنه - أن الرسول ﷺ قال: «**من أحب أن يبسط له في رزقه وينسأ له في أثره فليصل رحمه**»[4].

ومعنى ينسأ له في أثره: أي يطيل عمره.

ومن النصوص نقول: أن الله - تعالى - أمر ببر الوالدين، والإحسان إليهما؛ لأنهما سبب وجود الأبناء، وعليهما عبء التربية والتأديب. والتعليم وغرس القيم الدينية والتخلق بأخلاق القرآن، ولا شك أن الأم تعبت في الحمل والولادة والإرضاع والفطام والتربية والتمريض وغير ذلك مما يحتاجه الأولاد، ومن هنا كان البر بها أكثر من البر بالأب؛ ولذلك قال رسول الله ﷺ للسائل: «**أمك ثم أمك ثم أمك ثم أبوك**».

والإحسان ليس مقصوراً على الوالدين وحدهما، وإنما يتعداهما إلى ذوى الأرحام، والإسلام يفرض على بنيه الإحسان إلى الوالدين، ثم الإحسان إلى ذوى الأرحام، وقد بين الرسول ﷺ أن صلة الأرحام يترتب عليها طول العمر، وبسط الرزق، ومن الذى لا يتمنى بسط رزقه وطول عمره؟

ومن حسن إسلام المرء أن يتخلق بالإحسان في كل أموره، ومن هنا قال رسول الله ﷺ: «**أن الله كتب الإحسان إلى كل شيء فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا**

---

(١) الآية: ١٤ من سورة لقمان.

(٢) رواه البخارى ورقمه ٥٢٧ ومسلم ورقمه ٤٧.

(٣) رواه البخارى ورقمه ٥٢٧، ومسلم ورقمه ٤٥٤٨.

(٤) رواه البخارى ورقمه ٥٩٨٦، ومسلم ورقمه ٢٥٥٧.

ذبحتم فأحسنوا الذبحة، وليحد أحدكم شفرته وليرح ذبيحته»[1].

والإحسان مرتبة عالية بالنسبة للإيمان والإسلام، يدلنا على ذلك حديث جبريل - عليه السلام - حينما نزل فى صورة رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر لا يرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه أحد من الصحابة - رضى الله عنهم - وقد سأل أولاً عن الإسلام؟ ثم سأل عن الإيمان، ثم سأل عن الإحسان، وقال الرسول ﷺ مجيباً عن سؤاله الثالث بقوله: «**أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**» وهذا ترتيب تصاعدى جميل، فالسؤال الأول عن الأمور الظاهرة، والثانى عن الأمور القلبية التى لا ترى بالحس، والسؤال الثالث عن الإخلاص الذى يعد فوق السؤالين السابقين، وهو يتلخص فى الإخلاص الكامل لصاحب الأمر والنهى، والمطلع على ما فى القلوب فى نية صادقة لاتشوبها شائبة.

ومن هنا نقول: إن الإحسان قد يكون فى العبادة، وقد يكون إعطاء الوالدين حقهما على الأولاد، وقد يكون فى إعطاء الآباء والأمهات إلى أولادهما حقوقهم المشروعة التى الزم الله الوالدين بها، وقد يكون الإحسان إلى الفقراء من الأغنياء، وقد يكون الإحسان من الإنسان إلى الحيوان حتى عند القضاء عليه بالذبح أو بالقتل.

والإحسان كله صفة مدح، وهو تنفيذ لأمر الله، وعمل بتشريع الله ورسوله لأمة الإسلام، وما دام هذا أمر الإحسان فينبغى على الكبار أن يفعلوه أمام الصغار؛ ليزرعوه فى قلوبهم من صغرهم، حتى يتخلقوا بأخلاق القرآن عندما يكبرون.

٢- العدل بين الأخوة:

من المبادئ الإسلامية التى تنشر المحبة والأخاء بين الأبناء، وترسى حسن الترابط والتلاحم بين أفراد العائلة - مبدأ العدل بين الجميع؛ لأن العدل يجعل المساواة بين أفراد العائلة أمراً واقعاً وملموساً ومشاهداً، وهذا يؤدى إلى الأمن الأسرى أولاً، ويؤدى إلى أمن المجتمع ثانياً، ولا شك أن أمن المجتمع مطلب حيوى يحرص عليه الإسلام ويدعو إليه، والقرآن الكريم والسنة النبوية فيهما من النصوص الشىء الكثير، ومن هذه النصوص ما يأتى:

---

(١) بلوغ المرام من أدلة الأحكام ورقمه ١٣٦٧.

يقول الله - تعالى -: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (١).

ويقول الله - تعالى -: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾(٢).

وفى هذان النصان أمر من الله لعباده بالعدل بين الأولاد، وبين الأخوة، وبين الأقارب، وبين الناس جميعاً، لا فرق فى ذلك بين من تحبون ومن تبغضون، ولذلك قال: ﴿وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا﴾ ومعنى هذا: لا يحملنكم بغضكم الشديد لقوم على ألا تجانبوا العدل معهم، بل التزموا بالعدل فهو أقرب سبيل إلى خشية الله - تعالى - والبعد عن غضبه، واعملوا - دائما وأبداً على خشية الله فى كل أمر تفعلونه؛ فإنه - سبحانه وتعالى - عليم بكل أفعالكم ويجازيكم على كل ما تعلمون.

وإذا كان العدل مطلوباً بالنسبة لمن نبغضهم، فهو لمن نحبهم من باب أولى؛ لأنه يترتب عليه الأمن والسلام بين أفراد الأسرة، ومن هنا لم يرضى الرسول ﷺ أن يشهد على عطية النعمان بن بشير، وذلك فى الحديث الآتى:

عن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال أعطانى أبى عطية فقالت عمرة بنت رواحة: لا أرضى حتى تشهد رسول الله ﷺ فأتى رسول الله ﷺ فقال: إنى أعطيت ابنى من عمره بنت رواحه عطية فأمرتنى أن أشهدك يا رسول الله، قال: «أعطيت سائر ولدك مثل هذا؟» قال: لا، فقال النبى ﷺ: «فاتقوا الله واعدلوا بين أولادكم» قال: فرجع فرد عطيته(٣).

ومما لا شك فيه أن عدم العدل بين الأخوة يؤدى إلى وقوع العداوة والبغضاء بينهما، ويدعوا الشيطان إلى وسوسته ليفسد بينهم، ولنأخذ العبرة والعظة من قصة سيدنا يوسف بن يعقوب - عليهما السلام - فرغم أن أباهم كان نبياً وكان عادلاً، إلا أن الشيطان نزغ بين يوسف عليه السلام وبين إخوته، ووسوس لهم بأن أباهم

(١) الآية: ٩٠ من سورة النحل.
(٢) الآية: ٨ من سورة المائدة.
(٣) مختصر صحيح البخارى ورقم الحديث ١١٦١ س ٢٥٤.

يفضله عليهم، فكادوا له وأرادوا قتله، ولكن آخاه الشقيق أشار عليهم بعدم قتله ورميه بالجب حتى تلتقطه بعض السيارة التى يمرون على هذا الجب، ووافقوا على الفكرة، وقاموا بتنفيذها، ورجعوا إلى أبيهم فقالوا: لقد أكله الذئب، وجاءوا على قميصه بدم شاه ذبحوها ليدلوا على صدق دعواهم، وقال القرآن فيهم: **﴿وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ (١٦) قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ (١٧) وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾**[1].

ويقول يعقوب عليه السلام: «**بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون**» يدل على أنه لم يصدق كذبهم، وقد حذر ولده يوسف أن يحكى رؤياه لأخوته حتى لا يكيدوا له ويحسدوه ويدبروا له أمراً سيئا، وقال القرآن على لسانه: **﴿يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾**[2].

ومن هنا زرع الشيطان الحقد والحسد بين يوسف وأخيه الشقيق، وبين إخوتهما وقال القرآن فيهم: **﴿إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٨) اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ﴾**[3].

وسيدنا يعقوب عليه السلام لم يؤثر سيدنا يوسف يعطية دون إخوته، وإنما نظراً لمعرفته بتأويل رؤيا ولده يوسف - عليهما السلام - وأنه سيكون نبياً مختاراً مثله مثل أبيه إبراهيم وإسحاق، ومن هنا أحبه وكانت له منزلة رفيعة عند أبيه يعقوب، والحب أمر قلبى، والقلوب بيد الله يقلبها كيف يشاء، ولا يدخل الميل القلبى فى العدل؛ لأن الإنسان لا يملك قلبه، وإنما القلوب بيد الله يقلبها كيف يشاء فسبحانه وهو العليم الخبير.

---

(١) الآيات: ١٦، ١٧، ١٨ من سورة يوسف.

(٢) الآية: ٥ من سورة يوسف.

(٣) الآيتان: ٨، ٩ من سورة يوسف.

٣- التعاون على الخير:

يقول الله - تعالى - فى كتابه الكريم: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾[١].

ومن هذه الآية الكريمة يتضح لنا أن الإسلام قد سبق بالدعوة إلى التعاون جميع التشريعات الوضعية الحديثة، التى تنادى بالتعاون بين الناس فى أمور الخير، والتى تعود عليهم بالنفع بعشرات المئات من السنين.

ومادام التعاون على الخير له فوائد عديدة، فيجب على الكبار من الأهل أن يتعاونوا فيما بينهم، وأن يزرعوا التعاون المثمر الفعال بين أفراد العائلة، فالله - تعالى - يأمر بالتعاون الذى يؤدى إلى البر وتقوى الله، وينهى عن التعاون الذى يؤدى إلى المعاصى ومجاوزة حدود الله، وقد ختم الله - تعالى - الآية الكريمة بالأمر بالتقوى والخشية من عقاب الله تعالى وبطشه، وقد أكد قدرته التى لا تحد على بطشه بمن يخالف أمره بقوله فى آخر الآية: ﴿أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

والمراد بالبر والتقوى: فعل الطاعات، واجتناب المنكرات والمنهيات[٢].

والمراد بالإثم: الذنب الذى يستحق العقوبة عليه، وجمعه آثام، وفى القرآن الكريم يقول الله - تعالى -: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (٦٨) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا (٦٩) إِلاَّ مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾[٣].

والمراد بالآثام فى الآية الكريمة: جزاء الإثم؛ لأن الله - تعالى - قد ذكر قبل هذه الآيات صفات عباد الرحمن، وقال - تعالى - فى آخر صفاتهم: ﴿وَالَّذِينَ لاَ يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلاَ يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلاَ يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾ أى جزاء ما ارتكبه من العصيان.

والمراد بالعدوان: هو مجاوزة حدود الله، ولاشك أن من يجاوز حدود الله التى حددها وبينها لعباده، يستحق العقوبة التى قدرها الله لمن يرتكب هذا العصيان وتلك المخالفة.

---

(١) الآية: ٢ من سورة المائدة.

(٢) صفوة البيان لمعانى القرآن ص ١٤٢.

(٣) الآيات: ٦٨، ٦٩، ٧٠ من سورة الفرقان.

والنبى ﷺ يدعو المؤمنين إلى التعاون فيما بينهم وذلك فى الحديث الآتى: عن أبى موسى رضي الله عنه عن النبى ﷺ قال: «**المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً، ثم شبك بين أصابعه قال: وكان النبى ﷺ جالساً إذ جاء رجل يسأل أو طلب حاجة، أقبل علينا بوجهه فقال: اشفعوا فلتؤجروا وليقض الله على لسان نبيه ما شاء**»[1]

وهذا تشبيه بليغ من الرسول ﷺ فقد بين لأمته أن التعاون بين أفراد العائلة وبين العائلات، وبين المؤمنين جميعاً، فهم كالبنيان يشد بعضه بعضاً، وقد شبك بين أصابعه وذلك ليؤكد معنى التعاون الذى يؤدى إلى الخير الكثير والسعادة الدائمة ما دام فى البر والخير، وليس فى الإثم والعدوان.

ومن أولى ببذر بذور التعاون من الآباء أمام الأبناء ليتعودوا عليه منذ صغرهم ويكون التعاون - دائماً وأبداً - شعار العائلة، وإذا وجد التعاون فيها، وتحلى أفرادها به أدى ذلك إلى تعاون العائلات الإسلامية التى يتكون منها المجتمع الإسلامى النظيف، والذى يحافظ على أوامر الله - تعالى - فيؤديها، وعلى نواهى الله - تعالى - فيتجنبها، ولا شك أن هذا من شعب الإيمان.

وفى الحديث أن النبى ﷺ قال: «**لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يدع ما لا بأس به حذرا مما به بأس**»[2].

وقال الكلبى: (التقوى هى اجتناب كبائر الإثم، قال ابن عباس: المتقون الذين يحذرون من الله عقوبته فى ترك ما يعرفون من الهدى، ويرجون رحمته فى التصديق بما جاء به)[3].

وقال قتادة: المتقون هم الذين وصفهم الله فى قوله: ﴿**الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ**﴾[4].

وعن النواس بن سمعان رضي الله عنه قال: سألت رسول الله ﷺ عن البر والإثم فقال: «**البر حسن الخلق، والإثم ما حاك فى صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس**»[5].

---

(١) مختصر صحيح البخارى ورقمه ٢٠٢٦ ص ٤٦٨.

(٢) رواه الترمزى.

(٣) تفسير ابن كثير الخبراء الأول.

(٤) المرجع السابق.

(٥) رواه مسلم ج٨ وانظر فى ذلك طريقة المتقين للشيخ عبد الرحمن بن محمد حافظ ص ٩٢.

٤- مد يد العون للمحتاجين:

إن من شعب الإيمان ومحاسن الإسلام، أن يمد الإنسان يده بالخير لمن يحتاجه، والمراد بالخير هنا: كل أعمال الخير التى أمر الله - تعالى - بها عباده المؤمنين، وهى تتعدد وتتنوع، فقد يكون الإنسان محتاجاً إلى المساعدة فى العمل، أو فى المال، أو فى الصحة، أو فى التعليم، أو فى أى أمر يحتاج إلى المساعدة، ورسول السلام محمد بن عبد الله ﷺ يحثنا على ذلك فيقول فى حديث أبى هريرة رضي الله عنه: «**من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا، نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن يسر على معسر، يسر الله عليه فى الدنيا والآخرة، ومن ستر مسلماً ستره الله فى الدنيا والآخرة، والله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه، ومن سلك طريقاً يلتمس فيه علماً، سهل الله له به طريقاً إلى الجنة، وما اجتمع قوم فى بيت من بيوت الله، يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم، إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده، ومن أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه**»[1].

والكربة: هى الشدة العظيمة التى تقع للإنسان فيصيبه الكرب وتنفيسها: أن يخفف عنه منها، وهو مأخوذ من تنفس الخناق كأنه يرخى له الخناق حتى يأخذ نفساً، والتفريج أعظم من ذلك، وهو أن يزيل عنه الكربة فتفرج عنه كربته ويزول همه وغمه، فجزاء التنفيس التنفيس، وجزاء التفريج التفريج[2].

والجزاء من جنس العمل، وقد ورد ذلك فى حديث أبى سعيد الخدرى موقوفاً «أيما مؤمن أطعم مؤمناً على جوع أطعمه الله يوم القيامة من ثمار الجنة، وأيما مؤمن سقى مؤمناً على ظمأ سقاه الله يوم القيامة من الرحيق المختوم، وأيما مؤمن كسا مؤمناً على عرى كساه الله من خضر الجنة»[3].

ومد يد العون للمحتاج له طرق كثيرة يبينها رسول الله ﷺ فى هذا الحديث الشريف الآتى:

---

(١) رواه مسلم بهذا اللفظ.

(٢) جامع العلوم والحكم ص ٢٩٦.

(٣) رواه الإمام أحمد.

عن أبى هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**كل سلامى من الناس عليه صدقة، كل يوم تطلع فيه الشمس تعدل بين اثنين صدقة، وتعين الرجل فى دابته فتحمله عليها، أو ترفع عليها متاعه صدقة، والكلمة الطيبة صدقة، وبكل خطوة تمشيها إلى الصلاة صدقة، وتميط الأذى عن الطريق صدقة**»(١).

وفى رواية أخرى عن أبى هريرة رضي الله عنه عن النبى ﷺ قال: «**للإنسان ثلاثمائة وستون عظمة، أو ستة وثلاثون سلامى، عليه فى كل يوم صدقة، قالوا: فمن لم يجد؟ قال: يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، قالوا: فمن لم يستطع؟ قال: يرفع عظماً عن الطريق، قالوا: فمن لم يستطع؟ قال: فليعن ضعيفاً، قالوا: فمن لم يستطع ذلك؟ قال: فليدع الناس من شره**»(٢).

ومن هذه الأحاديث النبوية الشريفة نأخذ منها الحكم الشرعى، وهى فى مجملها تدل على أن واجب المسلم أن يمد يد العون والمساعدة لمن يحتاج إلى ذلك، وقد حثنا الرسول ﷺ على ذلك؛ لحبه لنا ورحمته بنا وقال الله - تعالى - فيه: ﴿ **لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ** ﴾(٣).

ومعنى هذه الآية الكريمة: لقد جاءكم أيها الناس رسول من البشر تكون مثل تكونكم، يأكل ويشرب ويتزوج مثلكم، يشق عليه ما يحدث لكم من ضرر، ويحرص كل الحرص على هدايتكم وإسعادكم، وهو ﷺ عظيم العطف والرحمة بالمؤمنين.

وإذا كان الرسول المرسل لكم بهذه الأوصاف، فالواجب عليكم السمع والطاعة، والعمل بأوامره ونواهيه؛ لأنه مبلغ عن الله - جل جلاله - والله - تعالى - يقول: ﴿**مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا**﴾(٤).

فطاعة الرسول ﷺ واجبة على المسلم البالغ العاقل؛ لأنه مكلف، وهذا حكم عام مطلوب من أطول العائلة، ومن فروعها، ومن حواشيها، ومما لا شك فيه أن العائلة بكل أفرادها لو تربت على الإيمان، وامتثلت لتعاليم الرحمن التى جاء بها القرآن، وبينتها وشرحتها ووضحتها سنة النبى ﷺ لوجدنا العائلة المؤمنة حق

---

(١) جامع العلوم والحكم ص ٢١٠.
(٢) نفس المصدر السابق.
(٣) الآية: ١٢٨ من سورة التوبة.
(٤) الآية: ٨٠ من سورة النساء.

الإيمان، هى نواة المجتمع المؤمن الذى يطيع الله ويطيع رسول الله، فيسعد فى دنياه وأخراه.

٥- الأمر بالاستقامة:

لقد أمر الله بالاستقامة هو ومن تاب معه وأناب، وذلك فى قوله - تعالى - ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلاَ تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[١].

ويقول الله - تعالى - فى موضع آخر من كتاب الله ﴿فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾[٢].

ومعنى الآية الأولى أن الله - تعالى - يقول لرسوله ﷺ فداوم أنت ومن معك من المؤمنين على التزام الطريق الصحيح، طريق الإسلام الذى لا عوج فيه كما أمرك الله - تعالى - ولا تتجاوزوا حدود الاعتدال، وذلك بالتقصير أو الإهمال، أو المغالاة فى تكليف أنفسكم ما لا تطيقون، وتيقنوا أن الله - سبحانه وتعالى - عالم بكل ما تعملون فيجازيكم عليه[٣].

ومعنى الآية الثانية: فلأجل وحدة الدين وعدم التفرق فيه، فادعهم إلى إقامة الدين وداوم وثابر وجاهد على نشر تلك الدعوى، ولا تساير أهواء المشركين[٤].

ومن هنا نعلم علم اليقين أن الاستقامة أمر مشروع، يجب على كل إنسان أن يتصف بها، وأن يعمل بمقتضاها، حتى يرضى الله - تعالى - عنه، ويكون من المقبولين، وفى الآخرة من الناجين، وليس الأمر بالاستقامة مذكور فى القرآن الكريم وحده، وإنما أكده الرسول ﷺ فى حديثه الجامع الذى رواه سفيان بن عبد الله رضي الله عنه قال: «قلت: يا رسول الله قل لى فى الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً غيرك، قال: قل آمنت بالله ثم استقم»[٥].

ومعنى هذا الحديث الشريف: أن سفيان رضي الله عنه سأل رسول الله ﷺ هذا السؤال وطلب منه ﷺ أن يعلمه كلاما جامعاً لأمر الإسلام، ويكون كافياً له لا يحتاج بعده

---

(١) الآية: ١١٢ من سورة هود.
(٢) الآية: ١٥ من سورة الشورى.
(٣) المنتخب فى تفسير القرآن بتصرف.
(٤) المصدر السابق بتصرف.
(٥) جامع العلوم والحكم ص ١٧٧.

إلى سؤال أحد، فأجابه النبى ﷺ بقوله: «قل أمنت بالله ثم استقم» وهذه الإجابة من رسول السلام محمد بن عبد الله مأخوذة من قول الله - عز وجل - ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾[1].

ومن قوله - تعالى - ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٣) أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[2].

ومعنى الاستقامة: إخلاص العمل لله والعمل بطاعة الله، والآية الأولى يبين الله - تعالى - لنا فيها أنه لابد من الإيمان أولا، ثم الاستقامة على العمل بطاعة الله وإخلاص العمل لله - جلا جلاله - والله - تعالى - يخبرنا بأن الملائكة تتنزل على المؤمنين العاملين المخلصين عند موتهم ملائكة الله تقول لهم: ألا تخافوا مما تقدمون عليه من أمر الآخرة، ولا تحزنوا على ما خلفتموه من أمر الدنيا، من ولد وأهل ومال، أو دين، فإنا نخلفكم فيه، وابشروا بالجنة التى كنتم توعدون، فيبشركم بذهاب الشر، وحصول الخير، وهذا ما جاء فى حديث البراء رضي الله عنه قال: **«إن الملائكة تقول لروح المؤمن: اخرجى أيتها الروح الطيبة فى الجسد الطيب، كنت تعمرينه، اخرجى إلى روح وريحان، ورب غير غضبان»**[3].

والآية الثانية فيها نفس المعنى، وقد ختم الله الآية التى تليها لقوله - تعالى - ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ وهذا بيانٌ من الله - جل جلاله - لعباده أن العمل الصالح سبب لدخول الجنة ونيل الرحمة.

ولا شك أن استقامة القلب على معرفة الله، وعلى خشيته وإجلاله ومهابته ومحبته وإرادته ورجائه ودعائه والتوكل عليه والإعراض عما سواه، يترتب عليها استقامة الجوارح كلها على طاعته، فإن القلب وهو ملك الأعضاء وهى جنوده، فإذا استقام الملك استقامت جنوده ورعاياه[4].

---

(١) الآية: ٣٠ من سورة فصلت.

(٢) الآية: ١٣، ١٤ من سورة الأحقاف.

(٣) مختصر تفسير ابن كثير بتصرف ج٢ ص ٤٤٠.

(٤) جامع العلوم والحكم ص ١٧٩.

وما دام أمر الاستقامة عاملا وشاملا، فلا يقبل الإنسان المستقيم إلا الاتصاف بالصدق والبعد عن الكذب، الصدق فى الأقوال والأفعال، ويترتب عليه الالتزام وعدم الخلف؛ لأن شأن المنافق إذا حدث كذب وإذا وعد اخلف وإذا اؤتمن خان، والإستقامة تمنع المسلم من النفاق، وشأنه الصدق إذا حدث، والوفاء إذا وعد، والمحافظة على الأمانة وردها إلى من ائتمنه على أمانته.

والرسول ﷺ يدعونا إلى الصدق، وينهانا عن الكذب، وفى ذلك يقول: «إن الصدق يهدى إلى البر، وإن البر يهدى إلى الجنة، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عن الله صديقاً، وإياكم والكذب فإن الكذب يهدى إلى الفجور وإن الفجور يهدى إلى النار وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً»[1].

والمراد بالبر: هو اسم جامع لكل فضيلة وخير، ويطلق على العمل الدائم الخالص لوجه الله - تعالى -.

وبناءاً على هذا: فمن أجل أن يكون الإنسان مستقيماً فيجب عليه أن يؤدى لله ما فرضه الله - تعالى - عليه، وأن ينتهى عما نهاه عنه، وأن يكون أخا مخلصاً كريماً لإخوانه المسلمين، محباً لهم، صادقاً فى تعامله معهم، شفوقاً بهم، وعطوفاً عليهم، ملتزماً بأقواله وأفعاله معهم، وفيا بأهله وأصدقائه، وحينئذ ينال رضا الله - تعالى - عنه، ورضى الناس، ويكون - إن شاء الله - فى الآخرة فى جنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين.

(١) مختصر صحيح البخارى ورقمه ٣٠٣ ص ٤٧٠.

عالمية الإسلام والعولمة

مقدمة:

فى هذه المقدمة تكلمت فيها عن عالمية الإسلام التى أرادها الله - تعالى - لعباده، ولا يمكن أن يرضى الله عنهم إلا إذا اتبعوا منهج الإسلام فى حياتهم، وذلك بالنسبة لعقيدتهم، وأخلاقهم، ومعاملاتهم، وسلوكهم، ومهما بحثوا ونقبوا عن ما يسعدهم فى هذه الحياة الدنيا، وفى الآخرة، فلن يجدوا أبداً ضالتهم المنشودة إلا فى تعاليم هذا الدين الذى ختم الله به رسالات السماء إلى خلقه، وجعله مسك الختام، وقال فيه: ﴿**مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا**﴾[1].

ولم يرسل - الله - محمداً ﷺ إلى الإنس وحدهم، وإنما أرسله للإنس والجن معاً، فقال فى كتابه العزيز: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ**﴾[2].

وقال - جل علاه -: ﴿**قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا (١) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا**﴾[3].

وقد وصف الله - تعالى - رسوله محمداً ﷺ بأنه الرحمة المهداة من الله - تعالى - لخلقه، وقال فى كتابه الكريم: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ**﴾[4].

---

(١) الآية: ٤٠ من سورة الأحزاب.
(٢) الآية: ٢٨ من سورة سبأ.
(٣) الآيتان: ١، ٢ من سورة الجن.
(٤) الآية: ١٠٧ من سورة الأنبياء.

وصفة بهذه الأوصاف التى لم يوصف بها أحد من قبله أبداً، فقال مخاطباً إياه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٤٥) وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾[١].

ووصف كتابه الكريم بقوله: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾[٢].

ووصف دين رسول الله ﷺ ورسالته بقوله - تعالى -: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾[٣].

ومن هنا نقول بملء فينا، وبصوت جهورى لا نخشى فيه أحداً: إن شريعة الإسلام هى الشريعة الربانية التى أكمل الله بها البناء، وهى الشريعة الخالدة التى ارتضاها الله - تعالى - لعباده، ولا يقبل منهم غيرها؛ لأنها جاءت من خالقهم ورازقهم والعالم بها يصلحهم ويسعدهم فى دنياهم وأخراهم، وصدق قوله الله - جل جلاله - إذا يقول لكل خلقه فى كل زمان ومكان: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾[٤].

---

(١) الآية: ٤٥، ٤٦ من سورة الأحزاب.
(٢) الآية: ٨٩ من سورة النحل.
(٣) الآيتان: ٢٨ من سورة الفتح.
(٤) الآية: ٢٨ من سورة الفتح.

وحدة الإله

لقد خلق الله - تعالى - آدم عليه السلام من تراب، وخلق حواء من ضلع من أضلاعه لحكمة يعلمها الله - جل جلاله - وقد أمر الله - تعالى - الملائكة بالسجود لآدم فسجدوا إلا إبليس أبا واستكبر وكان من الكافرين.

وقد بين الله - تعالى - الغاية من الخلق فقال: ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ (٥٦) مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ (٥٧) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ**﴾[١].

وقال رسول الله ﷺ في حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه «**من شهد أن لا إلا إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، وأن عيسى عبد الله ورسوله، وكلمته ألقاهاإلى مريم وروح منه، والجنة حق، والنار حق، أدخله الجنة على ما كان من العمل**» وزاد أحد رجال السند «**من أبواب الجنة الثمانية أيها شاء**»[٢].

وأنا أرى - والله أعلم - أن ذكر المصطفى ﷺ لعيسى عليه السلام وحده في هذا الحديث دون غيره من الأنبياء والمرسلين؛ لأنه قريب العهد به، ولأنه أراد ﷺ أن يصحح عقيدة أتباع المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام فقد قالوا: المسيح ابن الله وحاشا وكلا أن يكون لله ولدا، واليهود من قبلهم نسبوا لله ولداً، ومن هنا فسدت عقيدتهم وقال الله - تعالى - فيهم: ﴿**وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ**﴾[٣].

---

(١) الآيات: ٥٦، ٥٧، ٥٨ من سورة الذاريات.

(٢) اللؤلؤ والمرجان - ج١ ص١٩ ورقم الحديث ١٧.

(٣) الآية: ٣٠ من سورة التوبة.

ومعنى هذه الآية الكريمة: أن اليهود تركوا الوحدانية فى عقيدتهم وقالوا: عزيزاً ابن الله، وترك النصارى الوحدانية كذلك فقالوا: المسيح ابن الله، وقولهم هذا مبتدع من عندهم، يرددونه بأفواههم ولم يأتهم به كتاب ولا رسول، وليس عليه حجة ولا برهان، وهم فى هذا القول يشابهون قول المشركين قبلهم، لعن الله هؤلاء الكفار وأهلكهم، عجباً لهم كيف يضلون عن الحق وهو ظاهر، ويعدلون إلى الباطل[1].

لقد وصف الله - جل جلاله - نفسه بالأوصاف التى ينفرد بها وحده دون سواه، لأنه الإله الواحد الذى ينبغى على خلقه أن يوحدوه ويعظموه، وأن يعبدوه ولا يشركوا به أحداً، فهو القائل لعباده عن نفسه فى كتابه الكريم: ﴿**قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ**﴾[2].

وسبب نزول هذه السورة الكريمة: أن الكفار سألوا محمداً رسول الله ﷺ عن ربه، وذلك على سبيل الاستهزاء وقالوا له: صف لنا ربك، فنزلت هذه السورة وأمره الله - جل جلاله - بأن يجيبهم بأنه - سبحانه وتعالى - الجامع لصفات الكمال، الواحد الأحد، الفرد الصمد، المقصود على الدوام فى الحوائج، الغنى عن كل ما سواه، المنزه عن المجانسة والمماثلة، الذى لم يلد ولم يولد، ولم يكن له من خلقه نظير ولا شبيه، ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ**﴾[3].

والقرآن الكريم فيه آيات كثيرة يبين الله - تعالى - فيها صفاته وجلاله التى تدل على أنه الواحد القادر الخالق المحيى المميت، ومن هذه الآيات على سبيل المثال لا الحصر، قوله - تعالى -: ﴿**هُوَ اللَّهُ الَّذِي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ (٢٢) هُوَ اللَّهُ الَّذِي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلاَمُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٢٣) هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾[4].

---

(١) المنتخب فى تفسير القرآن الكريم - ص٢٦٣.

(٢) سورة الصمد.

(٣) المنتخب فى تفسير القرآن الكريم بتصرف يسير.

(٤) الآيات: ٢٢، ٢٣، ٢٤ من سورة الحشر.

ومعنى هذه الآيات الكريمة: أن الله وحده هو المعبود بحق دون سواه، وهو العالم بما غاب وبما حضر، وهو صاحب الرحمة الدائمة الذى يفيض بالنعم كلها صغيرها وكبيرها، وعامها وخاصها على جميع خلقه، وهو المالك لكل شىء على سبيل الحقيقة، وهو المطهر عن كل نقص، والمبرأ عن كل ما لا يليق به، وهو ذو السلامة من كل نقص، وهو المصدق لرسله بما أيدهم به من المعجزات التى أظهرها على أيديهم، وهو الرقيب على كل شىء فى الوجود، وهو الغالب الذى لا يعجزه شىء فى الأرض ولا فى السماء، وهو العظيم الشأن فى القوة والسلطان، وهو المتعظم عما لا يليق بجماله وجلاله، تنزه الله عما يشركون، وفى الصحيح: «العظمة إزارى، والكبرياء ردائى، فمن نازعنى واحداً منهما عذبته»[1].

ويقول - جل جلاله - عن نفسه - أيضا -: ﴿**اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَلاَ يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ**﴾[2].

ومعنى هذه الآية الكريمة: أن الله - تعالى - هو الذى يستحق أن يعبد وحده دون سواه، وهو الباقى القائم على شئون خلقه دائما وأبداً، لا يغفل عنهم، ولا يصيبه فتور ولا نوم وما يشبه ذلك؛ لأنه لا يتصف بالنقص فى شىء، وهو المختص بملك السماوات والأرض ولا يشاركه فى ذلك أحدا، وبهذا لا يستطيع أى مخلوق كان أن يشفع لأحد إلا بإذن الله، وهو - سبحانه وتعالى- محيط بكل شىء، وعالم بما كان وما سيكون، ولا يستطيع أحد من خلقه أن يدرك شيئا من علم الله إلا ما أراد الله له ذلك، وهو صاحب السلطان الكبير الواسع الذى يشمل الكون كله، ولا يصعب تدبير ذلك؛ لأنه المتعالى عن العجز والنقص، العظيم بجلاله وسلطانه[3].

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير - ج٢ - ص٦١٨.

(٢) الآية: ٢٥٥ من سورة البقرة.

(٣) المنتخب فى تفسير القرآن الكريم - ص ٦١ بتصرف.

ومادام أمر الله كذلك فلا يجوز لأحد من الجن والأنس ألا أن يؤمن بالله، ولا يجوز لأحد أن يشرك مع الله أحداً، وصدق الله - تعالى - إذ يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا﴾[1].

ويقول - جل جلاله - أيضا: ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيدًا ﴾[2].

وقد بين الله - تعالى - جزاء الشرك فقال: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ بْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴾[3].

ومما لا شك فيه أن الكون كله لا يصلح إلا إذا كان الخالق له واحداً، ويفسد - لا محالة - إذا تعدد الخالق؛ لأن إرادتهما عند التعدد تتعارض وتتفاوت، ولابد أن يكون أحدهما أقوى، وإرادته أمضى، وأمره نافذ، وليس له معارض، أما إذا تساوت القوتان والإرادتان فلابد لهما من التعارض والاختلاف، ومن هنا يكون الفساد، وصدق الله - تعالى - إذ يقول فى كتابه الكريم: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (٢٢) لاَ يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾[4]

وتفسير هاتين الآيتين: لو كان فى السماء آلهه غير الله تدبر أمرهما لاختل النظام الذى قام عليه خلقهما، وبلغ غاية الدقة والإحكام، فتنزيهاً له صاحب الملك عما ينسبه إليه المشركون، وهو - سبحانه وتعالى - لا يحاسب ويسأل عما يفعل؛ لأنه الواحد المنفرد بالعزة والسلطان، والحكيم العليم فلا يخطىء أبداً فى فعل إى شىء، وخلقه من الجن والإنس يحاسبون ويسألون عما يفعلون، لأنهم يخطئون، لضعفهم وجهلهم وغلبة الشهوة عليهم[5].

---

(١) الآية: ٤٨ من سورة النساء.
(٢) الآية: ١١٦ من سورة النساء.
(٣) الآية: ٧٢ من سورة المائدة.
(٤) الآيتان: ٢٢، ٢٣ من سورة الأنبياء
(٥) المنتخب فى تفسير القرآن الكريم بتصرف.

إتباع الرسول

لقد خلق الله - تعالى - أبانا آدم عليه السلام وجعله نبياً ورسولاً إلى ذريته، ورغم أن الوجود كله ليس فيه إلا أمنا حواء، وأولادهما الذين أنعم الله - تعالى - عليهما بهم، ذلك أن حكمة الله - جلت قدرته - وهو العليم الخبير بخلقه، اقتضت أن يرسل إلى الإنسان من يرشده ويبين له طريق الرشاد، فإبليس وجنوده لن يتركوه على فطرته السليمة التى فطره الله - تعالى - عليها، وقد جعل الله الشيطان عدواً للإنسان فقال: ﴿**إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ**﴾[1].

وقال - تعالى -: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنْصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٩٠) إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلاَةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ**﴾[2].

وقال - جل فى علاه -: ﴿ **وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا (١١٩) يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُورًا (١٢٠) أُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلاَ يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا**﴾[3].

ومادام الشيطان عدوا للإنسان، ويوسوس له، ويزين له المنكرات، ويدعوه إلى مخالفة الله - تعالى - وعصيانه، فمن رحمة الله - تعالى - بهذا الإنسان ألا يتركه دون أن يبصره، ويبين له طريق الصواب، ويحذره من الشرك والعصيان، ويبين له

(١) الآية: ٦ من سورة فاطر.
(٢) الآيات: ٩٠، ٩١ من سورة فاطر.
(٣) الآيات: ١١٩، ١٢٠، ١٢١ من سورة النساء.

عداوة الشيطان، ويحذره من تصديقه، وذلك بإرسال الرسل؛ لأجل هداية الناس إلى عبادة الله الواحد الأحد، الفرد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكون له كفواً أحد.

ومن هنا كان التشريع السماوى أمراً ضرورياً لا غنى للإنسان عنه أبداً، وهو رحمة من الله لعباده، ومشاكل الناس تختلف حسب الزمان والمكان، وحتى يجد الناس من يحل لهم مشاكلهم فى زمنهم حلاً سليماً يتفق مع فطرتهم، ويناسب بيئتهم، يرسل الله - تعالى - الرحيم بهم رسولاً خاصاً يبلغهم عن الله ما يصلح حالهم، فيصحح لهم عقيدتهم، ويبين لهم ما يناسبهم من الأحكام التى تسعدهم فى حياتهم، وصدق الله - تعالى - إذ يقول فى كتابه الكريم: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ**﴾[1]

ويقول - جل شأنه -: ﴿**شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلاَ تَتَفَرَّقُوا فِيهِ**﴾[2].

فهذه الآيات القرآنية الكريمة تدلنا على أن الله - تعالى - أرسل الرسل بالرسالات السماوية العديدة، منهم من لم يعرف، بدليل قوله - تعالى -: ﴿**وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ**﴾[3].

ومعنى هذه الآية الكريمة: أن الله - تعالى - أقسم وقال: لقد أرسلنا رسلاً كثيرين من قبلك، منهم من أوردنا أخبارهم عليك، ومنهم من لم نرد عليك أخبارهم، وما كان لرسول منهم أن يأتى بمعجزة إلا بمشيئة الله وإرادته، لا من تلقاء نفسه ولا باقتراح قومه، فإذا جاء أمر الله بالعذاب فى الدنيا أو الآخرة قضى بينهم بالعدل، وخسر فى ذلك الوقت أهل الباطل[4].

والرسالات السماوية وإن تنوعت وتعددت فهى كلها تدعو إلى عبادة الله الواحد، وهى كلها تدعو إلى حسن الخلق، والعمل على ما يسعد الناس فى معاشهم ومعادهم، والخلاف بين الرسالات إنما هو فى الفروع والأعمال، أما

---

(١) الآية: ٢٥ من سورة الأنبياء.

(٢) الآية: ١٣ من سورة الشورى.

(٣) الآية: ٧٨ من سورة غافر.

(٤) المنتخب فى تفسير القرآن الكريم - ص٧٠٤.

الأصول فلا خلاف فيها، رب واحد لا شريك له، ونفس حرم الله قتلها إلا بالحق، وعرض حرم الله انتهاكه، وما أوجب الله على أصحابه أن يحافظوا عليه وحرم الله على غيرهم أن يسرقوه أو ينهبوه أو يغتصبوه، وعقل كرم الله - تعالى - به الإنسان على غيره من الخلق، وقال لعباده مبيناً هذا التكريم في كتابه الكريم: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً (٧٠) يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلاَ يُظْلَمُونَ فَتِيلاً (٧١) وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلاً﴾[1].

ومعنى هذه الآيات الكريمة: أن الله - تعالى - الذى خلق لنا كل شيء يبين لنا في الآية الأولى أنه - جل جلاله - فضل جنس بنى آدم بالعلم والنطق واعتدال الخلق، وطهارتهم بعد الموت، ومواراتهم في القبور، وحملهم في البر على الدواب، وفي البحر على السفن، وفي الجو على الطائرات وسفن الفضاء، ورزقهم من الطيبات، حرم عليهم الخبائث، وفضلهم على كثير من خلقه كالبهائم والوحوش تفضيلاً كبيراً.

وفي الآية الثانية: يبين الله - جل جلاله - أن في يوم القيامة تدعى كل أمة بإمامهم أى نبيهم فيقال: يا أمة فلان، أو بكتاب أعماله فيقال: يا صاحب الخير، أو يا صاحب الشر، فمن أوتى كتابه بيمينه، وهم السعداء أولو البصائر في الدنيا، الذين آمنوا وصدقوا بالله ورسوله فأولئك يقرءون كتابهم ولا يظلمون فتيلاً، أى لا ينقصون من أعمالهم قدر قشرة النواة، هذه القشرة الرقيقة الضعيفة التى لا وزن لها.

ويبين الله - تعالى - في الآية الثالثة: أن الجزاء من جنس العمل، فمن كان في هذه الحياة الدنيا أعمى عن الحق وهو الإيمان بالله ورسوله، فهو في الآخرة أعمى عن طريق النجاة من النار وأضل سبيلاً، وبئس السبيل الذى يكون سبباً في البلاء والشقاء والعذاب المقيم[2].

---

(١) الآيات: ٧٠، ٧١، ٧٢ من سورة الإسراء.

(٢) أنظر تفسير الجلالين - بتصرف - ص ٢٢٨، ٢٣٩.

وهذا بالنسبة للشرائع السماوية كلها، تشترك فى الأصول، وتختلف فى الفروع، لتناسب الناس فى زمانهم، وعندما بلغت الإنسانية رشدها، واستعدت لقبول شريعة الخلود أرسل الله محمداً ﷺ بهذه الشريعة الكاملة الخالدة التى تناسب الناس - حينئذ - فى كل زمان ومكان إلى قيام الساعة، وجعلها مسك الختام، وقال للناس جميعاً: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾(١).

وجعلها الله - تعالى - عامة للإنس والجن على السواء، وقال فى كتابه الكريم: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا (١) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾(٢).

لقد خاطب الله - جل جلاله - نبيه ورسوله محمداً ﷺ بقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾(٣).

وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٤٥) وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾(٤).

وقال الله - تعالى - فى وصف القرآن الكريم الذى أنزله على رسوله محمد ﷺ: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾(٥).

وأول هذه الآية: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلاَءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ ....﴾(٦).

وبناءاً على هذه الآيات الكريمة تكون الشريعة الإسلامية هى الشريعة التى كمل بها البناء، وهى الشريعة الخالدة التى ارتضاها الله لعباده، ولا يقبل منهم غيرها، فيها سعادتهم فى دنياهم وآخراهم، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾(٧).

---

(١) الآية: ٤٠ من سورة النساء.
(٢) الآية: ١، ٢ من سورة الجن.
(٣) الآية: ١٠٧ من سورة الأنبياء.
(٤) الآيتان ٤٥، ٤٦ من سورة الأحزاب.
(٥) الآية: ٨٩ من سورة النحل.
(٦) الآية: ٨٩ من سورة النحل.
(٧) الآية: ٢٨ من سورة الفتح.

شريعة الأمن والعدل والسلام

إقتضت حكمة الله - تعالى - أن يرسل الرسل فى الأزمنة المختلفة، إلى الناس؛ لتقوم الحجة عليهم، كما قال فى القرآن الكريم: ﴿رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾[1].

والهدف من إرسالهم، إصلاح حالهم فى الدنيا، ونعيمهم فى الآخرة، ومما لاشك فيه أن الأنبياء والمرسلين جميعاً هذا هدفهم، وذلك كما قال الله - تعالى -:﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ (٤٨) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾[2].

والبشارة بالجنة فى الآخرة، والإنذار بالنار والعياذ بالله، فمن آمن بالله ورسله وأصلح عمله فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون فى الآخرة، ومن كذب الرسل وأبا طاعتهم فعذاب الله - تعالى - ينتظره فى الآخرة جزاء كفرهم وعصيانهم[3].

وما دام هذا الأمر واقعاً، والله - جل جلاله - جعل رسالة محمد ﷺ هى الرسالة الخاتمة وجعله خاتم الأنبياء فلا نبى بعده، وجعل رسالته عامة للإنس والجن على السواء، وجعلها صالحة للإنسانية كلها فى كل زمان ومكان إلى قيام الساعة، وما ذلك إلا لأنها قد اشتملت على كل ما يسعد الناس جميعاً فى دنياهم وأخراهم، فيها الأمن والأمان، والعدل والسلام، للفرد، وللأسرة، وللمجتمع، وللدول كلها فى كل أنحاء الدنيا، شرقاً وغرباً، شمالاً وجنوباً، ولا أقول ذلك لأننى مسلم، ومن أتباع محمد ﷺ ولكن أقوله؛ لأنها قد اشتملت على حل مشاكل الحياة

(١) الآية: ١٦٥ من سورة النساء.
(٢) الآيتان: ٤٨، ٤٩ من سورة الأنعام.
(٣) تفسير الجلالين للآيتين التصرف.

كلها حلاً سليماً يحقق المصلحة، ويقيم العدالة، ويحس الناس بالأمن والسلام فى اتباعها.

وهذه هى أنواع الأحكام الشرعية التى اشتملت عليها شريعة الإسلام، وقد قسمها العلماء المسلمون إلى ثلاثة أنواع أبنيها فيما يلى:-

النوع الأول: أحكام العقائد، والمراد بها: التصديق القلبى، وتشتمل على إصلاح العقيدة الفاسدة، فالعبادة لا تكون لأصنام لا تضر ولا تنفع، ولا تسمع ولا تطيع، وإنما تكون لله - تعالى - خالق الكون كله، وخالق كل شىء، والقادر على كل شىء، والعالم بالماضى والحاضر والمستقبل، فتشريع الله - جل جلاله - لعباده هو التشريع السليم المناسب لطبائع خلقه، والمؤدى إلى صلاحهم فى دنياهم وأخراهم، ولاشك أن إصلاح العقيدة هو المطلب الأول الذى من أجله أرسل الله - تعالى - رسله إلى الناس وقال فى ذلك: ﴿**وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ (٤٨) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ**﴾[1].

وحينما بلغت الإنسانية رشدها أرسل الله - تعالى - محمداً ﷺ بهذا الدين الخاتم الذى جعله الله دينا عاماً خالداً إلى قيام الساعة، وصالحاً لكل زمان ومكان، وطلب الله - جلت قدرته - من البشرية كلها أن تؤمن به وتصدق بكتابه، فالله - جل جلاله - الذى أرسل الرسل السابقين، هو الذى أرسل محمداً، وجعل معجزته القرآن الكريم، ووصفه بقوله: ﴿**وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلاَتِهِمْ يُحَافِظُونَ**﴾[2].

وقد أنذر الرسول ﷺ أم القرى، مكة المكرمة وما حولها تنفيذا لأمر المولى - جل جلاله - وقال الله - تعالى - فى ذلك: ﴿**قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلاَ بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ مُبِينٌ (٩) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ**﴾[3].

---

(١) الآيتان ٤٨، ٤٩ من سورة الأنعام.

(٢) الآية: ٩٢ من سورة الأنعام.

(٣) الآيتان ٩، ١٠ من سورة الأحقاف.

ومعنى هاتين الآيتين: أن الله - تعالى - يأمر رسوله ﷺ أن يقول لكفار مكة حينما قالوا: عن القرآن بأنه سحر مبين أى ظاهر، وقالوا: اختلق محمد القرآن وأضافه إلى الله: قل لهم يا محمد: ما كنت أول رسول من عند الله فتنكروا رسالتى، ولست أعلم ما يفعل الله - تعالى - بى ولا بكم، ما أتبع فيها أقول أو أفعل إلا الذى يوحيه الله إلى، وما أنا إلا نذير مبين أى بين الإنذار.

وقل لهم - أيضا -: أخبرونى إن كان القرآن من عند غير الله، وكفرتم به، وشهد شاهد من بنى إسرائيل على نزول مثله من عند الله وهو عبد الله ابن سلام، فآمن به واستكبرتم، ألا تكونون حينئذ أضل الناس وأظلمهم لأنفسهم، إن الله لا يوفق إلى الهدى من ظلم نفسه واستكبر عن الحق[1].

وما دام محمد ﷺ شأنه شأن الرسل السابقين فكان الأولى بإتباع الديانات السماوية السابقة أن يؤمنوا به ويصدقوه ويطيعوه، ولكن أنى لهم ذلك وقد حرفوا دينهم ونسبوا لله ولداً، واستحقوا العذاب والنكال فى الدنيا والآخرة.

والنوع الثانى: أحكام الأخلاق: والمراد بها تهذيب النفس البشرية، وإصلاحهم، واتصافهم بكل الصفات الحسنة التى تؤلف بين القلوب، وتجمع الناس على المحبة، وتدعوهم إلى التعاون على البر والتقوى، وعدم التعاون على الإثم والعدوان، ولاشك أن الحب والعطف والصدق، والحياء والعدل والمساواة، كلها صفات تجمع الناس على الخير، وتهديهم إلى البر، وتقرب بينهم، وتجعل الحياة سعيدة بين الناس، ويحس الجميع بالأمن والأمان، ويسود السلام بين الناس أجمعين.

والنوع الثالث: أحكام عملية: وهى التى تكون بين الناس وبين بعضهم مع بعض وتسمى بالمعاملات.

والقصد والهدف والغاية من العبادات تعظيم الله - وتقديسه والخضوع والتذلل له، وعبادته وحده دون سواه، والعمل بأوامره، والإنتهاء والبعد عن ما نهى الله عنه، وبذلك يرضى عن عباده، ويسعدهم فى دنياهم وآخراهم.

والمراد بالعبادات فى الإسلام: هى أركان الإسلام الخمسة، وهى شهادة أن لا

(١) المنتخب فى تفسير القرآن الكريم بتصرف ص ٧٤٥.

إلاه إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلاً، وهذه الأمور الخمسة يسيرة على من هداه الله ووفقه إلى مرضاة الله، فكلمة التوحيد تفرق بين المؤمن وبين الكافر، وهى أمان للنفس والولد والعرض والمال، وصدق رسول الله ﷺ إذ يقول للعالم أجمع: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فمن قالها فقد عصم منى ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه على الله - تعالى -**»[1].

والصلاة عماد الدين من أقامها فقد أقام الدين، ومن هدمها فقد هدم الدين؛ لأنها تهليل وتحميد وتكبير وذكر لله، وخضوع وتذليل لله رب العالمين، وفرق ما بين المسلم والكافر، وفيها الخير كله، لقوله - تعالى -: ﴿**اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلاَةَ إِنَّ الصَّلاَةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ**﴾[2].

وفى هذه الآية الكريمة يأمر الله - تعالى - رسوله محمداً ﷺ بأن يقرأ القرآن ولا يلتفت إلى الكفار، ويؤدى الصلاة على وجهها المشروع؛ لأنها مع الإخلاص فيها من شأنها أن تصرف من يقيمها عن الذنوب الكبيرة، وعن كل ما ينكره الشرع، وهى السبيل القويم لتقوى الله ومراقبته والحصول على الجزاء الكبير والثواب العظيم فى الآخرة[3].

والزكاة تكافل اجتماعى بين الأغنياء والفقراء فى دولة الإسلام، تؤخذ من الأغنياء وترد على الفقراء، لتسل الحقد والبغض والكراهية من قلوب الفقراء على الأغنياء، وليعيش الكل فى أمن وأمان وحب واطمئنان، والزكاة نماء وتطهير للمال، وعلاج للنفوس من الشح والبخل، وفيها يقول الله - جل جلاله - ﴿**يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ (٢٧٦) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ**﴾[4].

---

(١) مختصر صحيح البخارى ج١ ص١٦٤ ورقمه ٧٠٥.

(٢) الآية: ٤٥ من سورة العنكبوت.

(٣) المنتخب فى تفسير القرآن الكريم بتصرف ص ٥٩٧.

(٤) الآيتان: ٢٧٦، ٢٧٧ من سورة البقرة.

ومعنى هاتين الآيتين: أن الله القادر يبين لعباده أنه ينقص الربا ويذهب بركته وإن زادت كمية فى الظاهر، والزكاة على العكس من الربا يزيدها الله وينميها ويضاعف ثوابها وإن نقص المال فى الظاهر، والله - تعالى - لا يحب كل من يحلل الربا ويأكله، وإنما يعاقبه فى الآخرة عقاباً كبيراً.

ويؤكد الله - جل جلاله - أن الذين صدقوا بالله ورسله، وعملوا الصالحات، وأقاموا الصلاة وحافظوا عليها، وآتوا الزكاة طيبة بها نفوسهم، لهم أجرهم الواسع الكبير عند ربهم، ولا خوف عليهم من عذاب الله ولا هم يحزنون، وإنما رضى الله - تعالى - عنهم ورضوا عنه، وكانوا فى الآخرة من المخلدين فى جنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين[1].

والصيام لله - تعالى - امتثالاً لأمره، وهو عبادة سرية لله - جل جلاله - ومن هنا قال الله: - تعالى - فى الحديث القدسى: «**إن الله - تبارك وتعالى - يقول: الصوم لى وأنا أجزى به، وللصائم فرحتان: حين يفطر، وحين يلقى ربه، والذى نفس محمد بيده، لخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك**»[2].

ولاشك إن إضافة الصوم لله - تعالى - مع أن كل العبادات لله - جل جلاله - تدلنا على عظم ثواب الله على عبادة الصيام؛ لأنه - سبحانه وتعالى - هو المطلع على القلوب والسرائر، وترك المؤمن للأكل والشرب والجماع، والبعد عن الكذب والغيبة والنميمة، وكتم الغيظ وعدم الرد على من شتمه وأساء إليه، والتصديق على الفقراء والمساكين فى هذا الشهر الكريم كل ذلك يدلنا على فضل الله - تعالى - على عباده الصائمين.

وحج بيت الله الحرام للقادر عليه بدناً ومالاً وأمناً للطريق الموصل إلى بيته الحرام سبيل إلى غفران الذنوب، وسلامة الحاج من الآثام السابقة، ودرس عملى لأمة الإسلام على الألفة والمحبة، وتدارس لأحوال الإسلام والمسلمين، والعمل على حل مشاكلهم، والنظر فى مستقبلهم المأمول الذى ينتظرونه فى حياتهم الدنيوية.

---

(١) انظر هذا المعنى فى تفسير الجلالين.

(٢) الأحاديث القدسية ج١ ص١٧٥ ورقمه ١٦٨.

هذا من جهة العبادات التى يقصد بها توحيد الله، وإفراده بالألوهية، والخضوع له، والتذلل لجلاله وسلطانه، وعبادته وتعظيمه وتقديسه كما أمر الله - تعالى - به عباده.

وأما المعاملات التى شرعها الله لعباده المؤمنين، فهى التى تتعلق بتنظيم المجتمع كله تنظيماً دقيقاً، يترتب عليه تحقيق مصالح الناس فى هذه الحياة الدنيا، ونشر الأمن والسلام فى ربوع البلاد الإسلامية، وذلك عن طريق البيع والشراء، والإجارة والقرض الحسن، والزواج والطلاق وحقوق الأولاد، والحدود التى تزجر المتعدى وتمنع الغير من اقتراف الجرم الذى يترتب عليه الحد، سواء كان بالنسبة للدين، أو النفس، أو العرض، أو المال، أو العقل، والجنايات والمخاصمات، والتركات، والجهاد والسير وما يتعلق بها من جزية وهدنة وأمان ومعاهدات، والصيد والذبائح، والأطعمة، والمسابقة، والإيمان والنذور، والقضاء، والقسمة، والشهادة والدعوى والبينات وتحرير الرقيق.

ومن هنا نقول بصوت جهورى: إن الفقه الإسلامى كفيل بتحقيق مصالح الناس بالعدل والقسطاط، دون جور أو ظلم، وفيه من المرونة ما يجعله صالحاً للتطبيق فى جميع مجالات الحياة المختلفة؛ لأنه ينبنى على المصادر الصحيحة التى اشتملت على الأصول والقواعد التى يندرج تحتها كثير من الفروع، والاجتهاد ممن يصلح له - هو السبيل لهذا التطبيق، وبهذا يكون الفقه الإسلامى - بحق وصدق - صالحاً لكل زمان ومكان[1].

(١) مدخل للفقه الإسلامى للمؤلف ص٦٤ وما بعدها.

العولمة

العولمة: هى إصلاح حديث، وهى مشتقة من كلمة عالم، أى الكرة الأرضية ويقصد بها: انفتاح دول العالم بعضها على البعض الآخر ثقافياً واقتصادياً واجتماعياً، ولاشك أن التقدم التقنى ووسائل الاتصال وثورة المعلومات تعين على ذلك الانفتاح.

وتهدف العولمة إلى فتح الحدود الثقافية والاقتصادية والاجتماعية لكل دولة أمام دول العالم، ولاشك أن القنوات الفضائية والاتصالات والإنترنت وغيرها من الوسائل العالمية الآن تقوم إلى جانب الكثير من إيجابيات التواصل بطمس الحدود الثقافية وتذويب الهويات[1].

والعولمة فى نظرى: هى فكرة يهودية كاثوليكية تحاول اختراق التعاليم الإسلامية؛ لزحزحة المسلمين عنها شئيا فشيئاً، وشتان بين عالمية الإسلام والعولمة التى تنادى بها أمريكا، ومن ورائها بقية الدول المتقدمة، فعالمية الإسلام هى تشريع الخالق - جلا وعلا - الذى لا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء، وهو - سبحانه وتعالى - الرحمن الرحيم بعباده، الذى يشرع لخلقه ما يصلحهم ويسعدهم، وتعاليم الشريعة الإسلامية كلها رحمة ويسر، وتعاون مثمر فعال بين الناس، وحرب على الجشع والطمع والغش والخداع، وسلم وسلام بين جميع الشعوب، وأمن وأمان للناس أجمعين.

والعولمة وإن كان فيها بعض الإيجابيات لكنها تنطوى على سلبيات لا تتفق مع الشريعة الإسلامية، وعلى سبيل المثال: لقد رأينا مؤتمر المرأة العالمى الذى عقد

(١) انظر فى ذلك بحث الدكتور عبد الفتاح محمد فرج وعنوانه رؤية استراتيجية لعمل البنوك الإسلامية.

فى القاهرة، وفيه أمور تتعارض مع الشريعة الإسلامية، ومن هنا كان للدول الإسلامية تحفظات على بعض بنوده التى تخالف تعاليم الإسلام.

واتفاقية الجات التى تنظم التجارة العالمية، وتعمل على نشر الاقتصاد الغربى بكل ما فيه من إيجابيات وسلبيات، ومخالفات لتعاليم الإسلام ونظمه المالية السليمة.

ونحن كمسلمين يجب علينا ألا نرفض هذه التطورات التى أصبحت من ضروريات الحياة الإنسانية المعاصرة، وإنما يجب علينا أن نتحرك بسرعة وفاعلية لنلحق بركب هذه الثورة العلمية الكبيرة، وذلك من أجل أن نواجه كل مشكلة فى هذه الحياة الدنيا بما يناسبها من حلول تتمشى مع عقيدتنا الإسلامية.

إن شريعة الإسلام التى جاءت من عند الله تدعو إلى الرقى بالإنسان إلى المكانة الرفيعة التى تليق به كإنسان يريد الله - تعالى - له العزة والكرامة، وتدفعه إلى التقدم الحقيقى فى هذه الحياة الدنيا، ولن يكون هذا التقدم المأمول إلا بالمحافظة على شريعتنا الغراء، التى تحثنا - دائماً وأبداً - على التخلق بالأخلاق الرفيعة السامية، وعلى المثل العليا التى تؤدى إلى سعادة الإنسان فى دنياه وأخراه، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿**وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً**﴾[1].

ومن هنا أقول: يجب على أمة الإسلام أن تدافع عن دينها، وأن تتمسك به، ولا تنحرف فى سلوكها عن أهدافه وآدابه، ودفاعها عنه لا يكون بالإعراض عن هذا التقدم العلمى الكبير، وإهمالنا له وإعراضنا عنه، وإنما يكون بدخولنا فيه، ومواجهتنا له، وذلك عن طريق التقدم فى التكنولوجيا العربية والإسلامية فى العلوم الحديثة، وتجنيد العلماء الأكفاء فى جميع المجالات العلمية المختلفة للدخول فى ميادين العلم الحديث، وبذلك نحافظ على قيمنا ومبادئنا وسلوكنا الطيب المشروع فى حياتنا المعاصرة، ونبين للعالم مدى الضرر الذى يصيب البشرية من جراء انتشار المفاسد التى تأتينا عن طريق الوسائل العلمية الحديثة.

(١) الآية: ٧٠ من سورة الإسراء.

والمنافسة المشروعة التى يحثها الإسلام عليها، لا تكون بالهروب من المواجهة، ولكنها تكون بالمواجهة القوية بالعمل المماثل، فما يتفق مع شريعتنا الخالدة نشجعه ونؤيده، وننافسه بالعمل النافع المفيد الموافق لتعاليم ديننا الإسلامى الحنيف، ونظهر للعالم أن شريعة الإسلام فيها صلاح البشرية جمعاء[1].

إننا كأمة عربية وإسلامية نرفض رفضاً باتاً أن تجرنا العولمة إلى التقليد الأعمى لغيرنا باسم الحضارة والتمدن، واللحاق بركب الدول المتقدمة، فننحدر إلى الوراء والتخلف دون شعور أو وعى، وإنما يجب علينا نحن المسلمين أن نأخذ منها ما يتفق مع شريعتنا الخالدة، وندع ما لا يتفق مع ديننا وقيمنا وعاداتنا وتقاليدنا الإسلامية التى ربانا الإسلام عليها.

إن الإسلام يحثنا على أخذ كل نافع مفيد من الحضارات المختلفة، ما دام لا يتعارض مع تعاليم الإسلام، وليس هناك حجر على المسلمين أن يأخذوا بكل جديد نافع ما دام يتمشى مع شريعة الإسلام، أما ما لا يتفق مع الشريعة الإسلامية الخالدة خلود الزمن حتى يقضى الله أمراً كان مفعولاً، فلا حاجة لنا به؛ لأن الله - جل جلاله - لا يشرع للناس إلا ما فيه صلاحهم وسعادتهم فى دنياهم وأخراهم.

(١) انظر فى ذلك مقال العولمة والتحدى الكبير فى جريدة الخليج فى العدد ٧٧٩٦ بتاريخ ٢٢ سبتمبر الادردنى الشلبى، ومقال كتب تواجه خطر العولمة فى جريدة الخليج فى العدد ٧٨٠٣ بتاريخ ١٩ سبتمبر سنة ٢٠٠٠ للشيخ شريف عبد الله شريف.

واجب الحكومات الإسلامية والوالدين

يجب على الحكومات الإسلامية مراعاة ما يبث فى القنوات الفضائية وأن تراعى الله فى عملها، والبرامج التى تهاجم الإسلام والمسلمين، وتخرج المسلمين عن إسلامهم شيئا فشيئا، أن تمنع عنهم هذه البرامج لأنها تبعدهم عن الإسلام، وما أمر تبادل الزوجات ببعيد، وهذا إذا لم يؤدى انصراف الناس عن الإسلام فإنه يؤدى إلى إشاعة الفحشاء بين المؤمنين، وينسيهم الفطرة السليمة التى يريدها الله - تعالى - من عباده، والتى فطرهم الله عليها، وشيئا فشيئا، ينسى المسلمون دينهم، وينسون ربهم ورسولهم الخاتم وشريعتهم الغراء.

فالواجب على الحكومات الإسلامية، أن تغلق الأماكن التى لا تتمشى مع الإسلام، ولا تناسب المسلمين.

ولاشك أن فى الأمة رجالاً يعرفون ما يحاك لهم من أشياء لا تناسبهم، ولا ترفع من شأنهم، ولا تقوى إيمانهم، ولا يتمسكون بعالمية الإسلام، فالله - تعالى - واحد لا شريك له، والرسول ﷺ هو خاتم الأنبياء، وشريعته باقية ما بقى الليل والنهار، حتى تقوم الساعة - إن شاء الله - ويومئذ يفرح المؤمنون بدينهم، ورسولهم، وما ذلك على الله بعزيز.

إن فى الأمة الإسلامية رجالاً برعوا فى هذه البرامج ويمكنهم ذلك من معرفة الغث والسمين، فإن رأوا أن فى هذا إصلاح لعقيدة المسلمين، أو امتناع المسلمين به أبقوه، وإن رأوا غير ذلك منعوه، ولم يوافقوا على نشره أو إذاعته بين الناس، وذلك لأجل المحافظة على الدين الإسلامى الحنيف، والواجب على الوالدين مراقبة الأولاد، ومراعاة ما يبث لهم، وما يقرؤن، ولاشك أن هذا من الرعاية

المطلوبة، وتلك من المحافظة عليهم حتى يكونوا مسلمين بحق، ويكونوا مؤمنين كاملى الإيمان، ولا ينزلقوا فى هذا الجو الخانق، الذى لا يعرف مداه إلا الله، ونحن نرى الأولاد يفضلون الأنترنت على الأكل، والشرب، والمذاكرة، والنوم الهادئ، والتفكير فى خلق الله، وكل هذا من شأنه أن يمر الوقت فيما لا فائدة فيه، ولا خير يرجى من ورائه.

فالمراقبة المراقبة يا أمة الإسلام، والحرية لها حدود، فإن تركت الحدود كانت فوضى، والإسلام لا يرضى بالفوضى أبداً، والحرية لا تناط بالمعاصى، فقد حرمها الله - تعالى - على عباده، والأمة الإسلامية - كما قال الله - تعالى - فيها: ﴿**كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ**﴾ وقد بلغت اللهم فاشهد.

وختاماً ما أسأل الله - تعالى - أن يوفق المسلمين إلى ما فيه صلاحهم فى الدنيا والآخرة، إنه سميع مجيب.....